زهير مارديني

الثورة الإيرانية
بين الواقع والأسطورة

دار اقرأ

الثورة الإيرانية

بين الواقع والأسطورة

الطبعة الأولى

١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

دار اقـــرا
بيروت - الرملة البيضاء - سنتر ملكارت التجاري - ص. ب. ١٣٥٨١٨١ - هاتف: ٨٠٦٢٥٢

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

يوم كانت مادة هذا الكتاب تجتمع على الصمت والتكاثر بين يدي سنة بعد سنة حتى بلغت ما يزيد على ثلاثة آلاف بطاقة ، عدا عشرات الكتب والأبحاث ، ما كان في خاطري أن تأخذ طريقها إلى كتاب من مثل هذا الكتاب . كنت أريدها لمؤلَّف آخر ما يزال يتكامل عندي حول (الثورات في الإسلام) ، وما زلت أرى الى فراغه الواضح في المكتبة العربية ، وأتألم ، وأعمل على السداد ، وآمل أن أستطيعه عن قريب !

على أن معايشة المصادر التاريخية للثورات الإسلامية ـ جرتني ـ دون أن أدري ـ الى النظر في مناهج هذه الثورات ونسيجها الفكري ، وتقنيتها العلمية الدفينة ، وخصائصها من خلال تاريخ التدوين ، وتطوره على تمّطي الزمن . . كما جرتني ـ ودون أن أدري أيضاً ـ إلى معايشة الذين أرّخوا هذه الثورات ، ذلك الرعيل الكبير الذي رافق مسيرة التاريخ العربي الإسلامي كله ، وأعارنا عيونه والأقلام لنرى ، ونعرف تلك المسيرة ـ مسيرة الثورات الإسلامية ـ من خلاله حيادياً كان أم ذاهباً مع الأهواء . . نافذَ البصيرة أو أعمى الفؤاد . . في عشرات المجلدات التي كتبت . . ووجدتني بين هذا وذاك أمام موضوع جديد لم يكتب بعد بصدق ، وهو موضوع (الثورة الإيرانية بين الواقع والأسطورة)، وقد تكاملت على أوراقي جوانبه ، فلم

يبق إلاّ صورة اللحم والدم .لم يبق إلاّ أن توضع له الكلمات . . وهكذا وجد هذا الكتاب الذي يتحدث عن ثورة ما تزال تتفاعل . . دون أن تجد من يقترب منها ليتحدث عنها بعيداً عن الأهواء والأغراض والنوايا . . خبيثة كانت أم طيبة !

وبينما كنت أُلملم الكلمات وأجمعها في عبارات أخذ عقلي يبعث بإشارات ضوئية حمراء للتوقف عن عملية الجمع ، لأسباب يعرفها العقل نفسه ولا اجهلها بالطبع . . ففي أعالي رؤوسنا نحن بني حواء وآدم ركبت آلة ندعوها العقل ولا نعلم الاّ القليل عن تركيبها ونكاد نستوي جميعاً في الجهل بطريقة عملها ، وآلية سيرها . . ولكنها ، هذه الآلة بالذات ، هي كل شيء فينا ، وهي ، كما يقولون ، الشيء الذي من أجله ندعى أنّا بشر ، وننتسب إلى المجموعة التي ميّزت نفسها ، بحق أو بغير حق ، بين الكائنات باسم ، الإنسان !

وليست هذه الآلة بالضخمة . انها لا تجاوز في الحجم قبضة الكّف ، ولكنها مع ذلك تتناول الكون والأفلاك ، في جرمها الصغير ، وما وراء الكون والأفلاك ، وليس لها من هسيس ولا نأمة . انها تعمل بأعمق الصمت ، ولكنها مع ذلك ملأت تاريخ الإنسان ضجيجاً ، وأحداثاً جساماً . وما يزال لها في كل زاوية من زوايا هذا الكوكب الأرضي هزيم ، إلاّ تكن تسمعه الآذان فإنه يهزّ القلوب هزاً ، وأخيراً ليس لهذا العقل من وجود لدى غير الإنسان . وتسأل عن سبب تميز هذا المخلوق وحده به فتسمع الشتيت من الردود . . ولن تنتهي التفاسير إذا نحن طاردناها ما دامت المشكلة قائمة تتحدى ، والفلاسفة أحياء وذوي ألسنة !

ومع ذلك فإنك واجد من يتمرد على هذا العقل أحياناً ويدير له ظهره . . ومن هؤلاء الذين وجدوا الجرأة فصمّوا آذانهم عن ندائه الملح هو كاتب هذه السطور لقناعته بأنّ الفكر شيء إنساني ، ميزة ، إذا شئت . . ولا يختلف أحد في هذا طبعاً ، ولعلهم لا يختلفون أيضاً في الحقيقة الأخرى ،

وهي أنّ الإنسان كان انساناً منذ استطاع تحريك هذه الآلة في رأسه ، على نحو يخالف سرمدية الغريزة وتكرارها الرتيب . وفي فكره الحرّ يكمن معنى إنسانيته ! وإذا كان الناس ، حسب هذه الأقانيم الشائعة في العصر الحديث ، يولدون أحراراً ، فالفكر منذ وجد كان أيضاً حراً لأن (الثورة) كانت علّة وجوده ! نعم لقد تمرّدتُ على نصائح عقلي ومضيت في مغامرتي غير المضمونة لأن الحياة تكره التكرار العقيم ، وتنزع إلى الخلق ،ولأن العمل الخلّاق غير ممكن الاّ مع حرية الفكر والإرادة .

ان الوجود الإنساني ما قام في الواقع الاّ على الفكر الطليق ، وإنما بدأت إنسانية الإنسان ، منذ اللحظة التي تمرد فيها على الغريزة والعادة وحقق وجوده الخاص ، أي شعر بفردية المبدع ، وبكل قلقه !

ان الإسماء الكبرى التي احتفظ بها الناس في التاريخ ليست أبداً أسماء من مشى مع القطيع البشري ، ولكنها أسماء من نَدَّ عنه . . . والأطياف الكبرى التي تهزّ ذاكرة البشرية ليست أبداً أطياف المقلدين ، والمحافظين ، ولكنها أطياف المبدعين الذين عرفوا كيف يقولون لمن حولهم باصرار وحزم :

ـ لا !

وكل ما ننعم به من تراث إنساني ونعيم مادي وقيم فكرية إنما هو هبة قدمها للناس حفنة من المتمردين دفعوا ثمنها من دمهم ، وأعصابهم ، وكرامتهم أيضاً . . (إنّا في الواقع لنتنفس من الهواء بغير جهد بفضل الأفكار التي ماتت من أجلها النفوس العظيمة) . . ولو أنّ معجزة حذفت من التاريخ أسماء المفكرين الأحرار والأبطال فماذا يتبقى في تاريخ البشر زيادة عما في تاريخ قطيع من القردة أو سرب من الطير ؟ ولو أن ذلك الرعيل من المبدعين الأحرار الذين قادوا الثورات الإسلامية ما عرفوا نور الأرض ، ولا ترابها فماذا تراه يكون هذا الجنس الإنساني الذي يزحف على وجه الكواكب ؟ .

وقد نتصور بعد أنّ حرية الفكر في التعبير أمر قريب المنال بدليل أن لا شيء يمكن أن يمنع الإنسان من التفكير فيما يشاء . وقد يظنّ المتفائل أنّه من السهل إقناع الناس بضرورة تلك الحرية ، وبفائدتها ما دامت عجلة الإنسانية تأخذ عصيها من أضلاع الأحرار . بل لقد نبلغ في التفاؤل حدّ القناعة بهذه المبادىء التي قررت للإنسان منذ سنوات حقه في التحرر من الجهل والخوف . . لقد أصبح ذلك حقاً من الحقوق الطبيعية للبشر . ومع هذا فليس من السهل لأنه ، لا عداء أشرس من عداء فكر لفكر ، كما دلّ على ذلك تاريخ الذين قادوا الثورات الإسلامية عبر القرون . . والتراث الإسلامي كله كتب بدماء الأحرار أكثر مما كتب بأيديهم .

لثورة الفكر تاريخ يحدّثنا بأن ألف مسيح دونها صُلبا

ولعلّ التاريخ المقبل للثورات الإسلامية القادمة سيحدثنا عن الآلاف الذين سيصلبون أيضاً .

بلى ! قد يكون الفكر حراً لا حاجز يمنعه من الإنطلاق ما دام فقط داخل العلبة العظيمة بأعلى الجمجمة ولكنه يستحيل ناراً ودماء متى حاول الظهور على طرف اللسان ، أو من بين الأصابع . . لا يمنعك جبّار ، ولا يأبه بمعارضتك أحد ما دمت تحتفظ بين خلايا دماغك وشرايينه الشعرية بالذي تريد . . والناس يتركون لك تلك الحرية المؤلمة ، وكم ودّوا ـ بقطع الأكف ـ لو يحرموك منها ، لو استطاعوا لكنهم ، يفرضون رقابتهم على لسانك أن ينقل أفكارك لغيرك كما تفرض أنت بدورك رقابتك عليهم .
ولست بحاجة إلى الجهر بالقول لتتهم بجريمة التفكير الحرّ ؟ إن تعليقاً عابراً تقوله ، أو تصرفاً معيناً في بعض الأمر ، بل إن سكوتاً منك فيه أبلغ الدليل !

ولعله ليس من العسير أن تحلل سرّ عداء الناس للفكر الحرّ فقبول فكرة جديدة معناه أن يضطر المرء لأعادة تنسيق (عالمه العقلي) من جديد ، وهو عمل يتطلب المشقّة ويقتضي بذل نصيب مؤلم من الجهد

الذهني لا قِبَل لكل امرىء به . . ثم ان غريزة المحافظة على الذات يطوقها في النفس سور من الخوف والرهبة ، ويترجم هذا الخوف عن نفسه بتلك التقاليد الإجتماعية التي تخشى كل جديد ، وبذلك الإتجاه المحافظ الذي نراه عند السواد . وليس بالسهل أن تخرق ذلك السور دون أن تتعثر بحراسة الملايين !

وأخيراً ـ وليس آخراً ـ قد تتعرض مصالح بعض الجماعات ، أو بعض الطبقات الإجتماعية للخطر إذا قبلت فكرة جديدة في الناس فهم يحاربونها في الحرب الخالدة : تنازع البقاء !

وأما وسائل الحرب فألوان وألوان . . أهونها التقاليد ، وجريمة خرق التقاليد وتتدرج بعد ذلك إلى الإزدراء ، والإحتقار ، كالذي لقيه ابن تيمية بسبب الفكر الحرّ الملحاح في رأسه ، وتصل بعد ذلك إلى إحراق الكتب كما أحرقت كتب (ابن رشد) في قرطبة ، وتنتهي آخر الأمر بالإسكات القسري والخنق ، والقتل . . ودهن الأرجل بالشحوم ، والتقريب من النار شيئاً فشيئاً !!!

وكم من فكرة حرة اختفت على مثل شفتي ابن حنبل . . وكم من دماغ حرّ دخل الى محاكم التفتيش فخرج شلوا على الأعواد . ولا تسأل أعداء الفكر الحرّ بعد هذا هل مات ذلك الفكر الذي أسكتوه ، أو خنقوه ؟ إنهم لا يدركون الاّ متأخرين ، أن النبتة القوية لا تموت ، وأن دفقة الحياة المتسامية لا يمكن أن توقف ، وان الذين أسكتوا الفكر ما أسكتوا غير الشفاه ، والذين أحرقوا الكتب ما نالوا غير الورق ، والذين قتلوا ما فازوا بغير الجسد . وبقي الفكر الحرّ لا يمكن أن يسكت ، أو يحرق ، أو يقتل :

(ان الخنجر، كما قال امير بروتستانتي ، أيام الحروب الدينية ، لا يجدي شيئاً ضدّ الروح) !.

ولست أعني من هذا كله بعد أن كل ثورة صحيحة الرأي والعمل .

لا ! وليس من الضروري أبداً أن تكون كذلك . ان الطبيعة تنثر ألف بذرة في العراء لتنجح واحدة في مدّ الجذور بالأرض ، وتطلق ملايين البيوض لتفوز باللّقاح بذور معدودة ، وكذلك فكر الثورة : يذرى مع كل ريح أو يجب أن يذرى ، كما تذرو يد الفلاح السمح قبضة الحب ! لتستقر عليها عمد العمل الإنساني .

ماذا على الافكار لو انطلقت آلافاً في آلاف ، كأسراب الليل أو السنونو لتبقى منها جميعاً فكرة واحدة ، فكرة صغيرة ، كقلب العصفور الغّض ، تقود الإنسانية خطوة أخرى الى الأمام ؟ !

والافكار الحرُّة غذاء قدسي ، والحياة وحدها تختار منه قوام كيانها ! حاجة المجتمع ، وحاجة الروح هي التي تبقي على النبتة القوية ، وتعصف بالحقير التافه :

﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ .

انه لمن غرور الأطفال أن نفترض أن رأينا وحده دون آراء الناس هو الصراط المستقيم ، ومن المغالاة المسرفة في تقدير قيمة آرائنا الخاصة ، كما يقول (مونتين) أن نحرق بسببها أحد الناس حياً . . ومن يبني آراءه على الأمر والتحدي فإنما يدل بذلك على أن نصيب العقل فيها ضعيف . روى (أوسيان) في اسطورة . . قصة (جوبيتير) ربّ الأرباب : انه كان يتنزه ذات يوم مع أحد الفلاحين وكانا يتناقشان بملء الحرية والمؤالفة في شؤون الأرض والسماء ، وكان الفلاح يصغي في اهتمام ورضى بينما يبذل جوبيتير جهداً مضنياً ليفرض عليه رأيه ، ولما رأى عنده بعض ملامح الشك تلفت حوله بخفة مهدداً بأن يسلط عليه الرعد . . فصاح الفلاح بسرعة :

(ها قد علمت الآن انك مخطىء يا جوبيتير . اني أعرف خطأك على الدوام حين تلجأ إلى رعدك !) .

وهكذا ، فالفكر لا يقف في وجهه الاّ فكر أقوى منه ، ولقد تستطيع القوة المادية أن تقف على رأس سيف ، ولكنها لا تستطيع أن تبقى إلى

الأبد هناك . . ظل (لويس الرابع عشر يقول (الدولة أنا) سبعين سنة ، ومع ذلك عجز عن أن يلملم من الطرقات تلك الأغاني العنيفة التي قامت ضدّه . وتهامس الناس رغماً عنه بصلاة أخرى غير الصلاة المعروفة (أبانا الذي في السموات تمجد اسمك . . أعطنا خبزنا كفاف يومنا) لقد كانت الصلاة الأخرى تقول : (أبانا الذي في فرساي ان اسمك لم يعد ممجداً ومملكتك لم تعد على ما كانت عليه من العظم وإرادتك لم تعد مفروضة على الأرض ولا على الماء . . اعطنا اليوم خبزنا الذي يعوزنا من كافة النواحي . .) .

ان الفكر الثوري لا يعدم وسيلة التمرد على القيد ، سواء كان ذلك القيد اجتماعياً ، أم دينياً أم سياسياً . والغريب انه لا يأبه للضحايا . . لا يأبه لأنه يصبح في لحظة من لحظات التوتر النفسي ، هوى جامحاً يستهلك الشخصية كلها . وإذ ذاك تضحى قيمة المرء كلها في كلمة بين شفتيه ! وإذ ذاك يتميز المرء عن الملايين من أمثاله بموقف بطولة ! وأما نقيق الضفادع ، ضفادع المستنقع ، حول الثوار الأحرار ، وأما الأيدي المتشنجة التي تحمل حجارة الرجم ، والمخلب الذي يأكل من الصدر والسمعة . . فتلك ! تلك هي الاطار الذي لا بدّ منه لتدلل الحياة الإنسانية على أنها في سبيل ولادة بطل !

ضمن هذا الاطار الثائر مثلاً عرفنا وجه أبي ذر الغفاري ، وابن حنبل ، وابن تيمية . . وما من ثائر حرّ من الثوار الأحرار الاّ وقد قيل عنه مثل الذي كتبه (أرستوفانير) في مسرحية السحاب عن (سقراط) : لقد صوره مقيداً إلى وتد ، ووصفه بأنه أكبر مفكر ملحد هدام . .

وما من حرّ من الأحرار الاّ وقد واجه الموت كسقراط عيناً لعين وقال معه أمام المحكمة التي حكمته بالموت في أثينا :

«ان شئتم ان تبرئوني على أن أهجر بحثي في سبيل الحق فاني سأقول لكم : اني شاكر لكم ايها الأثينيون . ولكني أُفضّل طاعة الله الذي ألقى على عاتقي هذا العبء على طاعتكم . انني لا أعرف أيها السادة طعم

المـوت ولعله شيء جميـل ولكني واثق أن تـركي رسـالتي شيء قبيـح وأنـا أفضل ما يحتمل أن يكون جميلاً على ما أنا واثق من أنه قبيح) !

من أجـل هذا فقـد نحيت جانبـاً كل الإتهـامات التي قـد تطالني وتفتـح اشداقها ، كـأشداق الجحيم لتحـاسبني على هذه الفـاصلة ، وتلك الإشارة ، وذاك النعت ، وذياك التعبير لقنـاعتي بأن هـذه الإتهامـات لا بدّ أن تتبخـر أمام غيث الحقيقـة الذي أتـركه ليـروي وحده النيّـة السليمـة . فمضيت في انتـزاع قصـة (الثورة الإيـرانيـة) من اخـواتهـا (الثـورات في الإسـلام) فـإذا شـاب خـطوتي النقص وعدم الإحـاطة فعـذري انني دفعت بما كتبت عن هـذه الثورة تخلصـاً من عويلهـا الذي يشبـه عويـل بنات (السيـرين) في نشـدان الكمـال الى رصـاص المطبعـة لعله يجمد فيهـا على حال . . . وأعتـرف أني صـرفت النـظر مرات ومـرات عن انجاز هـذا الكتاب واصـداره للنـاس ، ولـكني كنت كلما انصرفت عنه أعادتني اليه رغماً عني دواع ملحة عديدة :

اولهـا : ان الإنسان ـ لحد كبيـر ـ حيـوان مؤرخ)، كمـا أنـه (حيـوان نـاطق) ، ومن قبـل ان يخلق (هيـرودوت) بكثيـر .. ومـع أن كـافـة الأمم تشتـرك في النزعـة التاريخيـة التي تكاد لعمقهـا وثباتهـا واستمراريتهـا وأثـرهـا الفعال ندعوها (بالغريزة التاريخيـة) . . مع ذلـك كله فاننـا نلاحظ أنـه ما من أمّـة في الأرض قبل العصـور الحديثة ، كتبت في تـاريـخ الثـورات ، وألفت فيهـا المؤلفـات الضخمـة جِدُّ الْضَّخـامَة ، وسجلت دقـائق مـا عـاشت من الأحـداث مثل مـا كان في العهـد العـربي الإسـلامي . . رغم مـا تعـرض لـه بعض هؤلاء المؤرخين من تعذيب ، وتقطيع أوصال ، وحرق ، وتشهير ! .

ثـانيها : ان معـاناة البحث في (الثـورة الإيرانيـة) تضع أمـام البـاحثين الكثيـر من الصعوبـات والمغلقات ، والمحـظورات . . ذلك لأن لهـذه الثـورة فلكها الفكري ، وعالمها ، ولغتهـا ، ولقد طـالما شعـرت وأنا أجمـع أطراف هذا الكتاب أن مهمتي معقدة حافلة بالمخاطر . . فلماذا التحدي ؟.

ولعـل الجواب كلمـة عنيدة سبق أن تعلمتهـا من فيلم قـديم يتـابع فيـه

المحامي (سبنسل تراسي) الكلام ثلاثة أيام في الدعوى دون انقطاع ، ويقول له القاضي :

ـ ولكنها قضية معقدة ، كما انك في النتيجة لن ترضي الجمهور الذي تعيش بين ظهرانيه !

فيجيب المحامي .

ـ ان القضايا المعقدة هي التي تستحق الدفاع عنها ، لأنها في النتيجة سترضي الحقيقة وهذا يكفي !

وثالثها : ان ترك الوقائع وحدها تتكلم هي التي سترسم للثورة الإيرانية آفاقها النظرية ، ومساربها العملية التي تسلك ، والأحداث التي جرت على الأرض إنما (تضعها) فقط . . تضع رجالها ، وتصرفات قادتها ، كما هي في الواقع الحي الذي درج . ان هذه الوقائع المجردة هي (الشاهد) الوحيد . . انها نحن بكل ما أناخت القرون في شراييننا ، ، وبكل ما رسبت الأحداث ، وتمرد العنفوان . . ثم ، أليس من الغبن ، ان لم يكن من الخيانة للذات العربية ، أن يظل هذا (الشاهد) مغمور العيون ، والجذور في تراب الأرض والإهمال ؟ ان تاريخ الثورات الإسلامية مثله كمثل كل تاريخ آخر عملية مزدوجة : هو ملحمة الحياة من جهة ، وهو تسجيل ملامح تلك الحياة في المعترك من جهة أخرى . . هو الزمان ، ومرآته معاً في المعنى الجدلي لهذه العلاقة المتناقضة . . أفليس من الوفاء ، والواجب أن نكشف كل تلك الظلال والألوان التي قد تكون أصابت عملية التسجيل ؟ . . أن نعرف إلى أيّ مدى كانت تلك المرآة صادقة الصورة فيما عكست للناس ؟ . . أن نعرف الحقائق من فم (الشاهد) لا من أفواه الأجانب الذين يتطوعون لكتابة تاريخنا . . وهم قلّما يتوخون الصدق إذا لم نقل أكثر !

ثم ، ما الغاية إلاّ أن يُقَيِّم (شاهد) الثورة ما رآه من أحداث حيّة سويّة في سبيل صلة أعمق ، وأكثر حياة وصدقاً بمنابع الذات الإيرانية ومسارها التاريخي العتيد .

وهـذا الكتاب ليس على أي حـال أكثر من محـاولة تـطمح في كثيـر من التواضع أن ترسم بعض الخطوط والمـلامح لهـذه الثورة التي قـامت في إيران لتكون نوعـاً من المصباح الهـادي ، واحدى المنـافذ لـلإتصال بـالحقائق التي يـرويها مسلم عـاش حياتـه وهو يتـطلع الى الآفـاق الإسـلاميـة الـرحبـة حيث العقيـدة الإسلاميـة الصرفـة هي التي تتحكم في التفكير والعمـل .. من هـذه الآفـاق التي قيدتني في مسيـرة حياتي مـا انتهلتـه من المجتهـد الكبيـر السيـد محسن الأمين طيب الله ثراه ..

كنت إلى جـانبه يـوماً ، وكـان يحدث بعض اقـرانـه من علمـاء النجف الأشرف عن ذكرياته فقال :

(خرجنا يوماً من مصر قاصـدين السويس في القـطار الحديـدي ، وبعد ركوبنا جاء شاب مصري موظف في ادارة السكة الحديـدية فـرأى قبالنـا مكانـاً خـالياً فلم يشـأ الركـوب فيه حتى سـأل ؟ هل هنـا احد؟ ممـا دلّ على أدبـه ، فقلت له :

ـ لا ..

فجلس وسألني قائلاً :

ـ هل سيادتك من أهل سورية ؟

فقلت : نعم

فقال :

ـ كم في سورية من المذاهب الإسلامية ؟

فقلت له :

ـ يوجد سنيون وشيعة .

قال :

ـ وما هم الشيعة ؟

قلت :

ـ فرقة من المسلمين يشهدون لله بالوحدانية ، ولنبيه (صلى الله عليه وسلم) بالرسالة، وأن جميع ما جاء به من الله حق ، ويقيمون جميع فرائض الاسلام من الصلاة ، والصيام ، والحج ، والزكاة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها ، ويحرمون جميع ما حرمه دين الإسلام ، وإنما يفترقون عن أهل السنة بأنهم يقولون إن أهل البيت عليهم السلام أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويأخذون احكام دينهم غالباً عن إمام اهل البيت جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، وقد يأخذونها من غيره من أئمة أهل البيت ، كما يأخذ أهل السنة أحكام دينهم عن الأئمة الأربعة ، ونادراً أنْ يخالف المذهب الجعفري جميع المذاهب الأربعة بل إن خالف واحداً وافق الأخير غالباً) . .

ويستطرد المجتهد الأمين قائلاً :

(بعد أن سمع مني الشاب ما سمع شكرني على هذا البيان ، وزاد في تعظيمي وإكرامي)

وبعد :

فهذا الكتاب بين أيدي القراء فان قصّرت ، أو أخطأت السبيل ، فانني آمل من الذين أرخوا الثورة الإيرانية بسدّ القصور ، وتقويم الخطأ . .

﴿ وما أوتيتم من العلم الاّ قليلاً ﴾.

زهير



رافسنجاني . . وراء الخميني



الأبن سرّ أبيه

من الكاشاني .. الى الخميني

قال لي صاحبي الأجنبي القادم حديثاً من طهران وهو يحاورني :
ما أشبه اليوم بالبارحة في طهران .. وأضاف :

ـ هل تذكر ذلك اليوم التاريخي الذي عشناه معاً (الجمعة العاشر من شباط « فبراير » ١٩٥١) ساعة وصلنا الى مطار مهرباد ـ أي قرية الشمس ـ لتغطية أحداث إيران التي كانت تشغل الدنيا في ذلك الحين كما تشغلها اليوم احداث مماثلة في عام ١٩٨٥ ؟

قلت لصديقي الفرنسي الذي يمتهن الصحافة ويعدّ كتاباً عن إيران :

ـ وكيف أنسى ذلك اليوم وما يزال صوت (آية الله ابو القاسم كاشاني) يدوي في أذني وهو يهدر :

(أيها الكلاب الانكليز اتركوا لنا بترولنا واخرجوا من بلادنا !).

ورحنا نسترجع معاً ، الصحفي الفرنسي وأنا، ذكرياتنا عن تلك الأيام .. فقد كانت الرصاصات الأربع التي صرعت (رازم آراه) رئيس الوزراء وقتها قد حققت لآية الله الكاشاني السيطرة الكاملة على الشارع الإيراني ، وتركت الشاه حبيس غرفته كما قال لنا يوم استقبلنا في قصره !

كانت شوارع العاصمة الإيرانية في تلك اللحظات العصبية تروي

أساطير طائرة عن آية الله كاشاني . . وأول ما كانت ترويه طهران من أساطير ، حكاية المظاهرة التي أمرها الكاشاني بأن تزحف على البرلمان يوم مناقشة موضوع تأميم البترول .

لقد تجمع عشرات الألوف في تظاهرة ، وراحوا يصرخون ويصيحون في كل الشوارع المؤدية الى ميدان (بهارستان) حيث مقر البرلمان :

(الموت للانكليز وكلابهم) !

في تلك اللحظات المثيرة من حياة الشرق كنت وصديقي الصحفي (جان فابيو) نقف الى جانب آية الله كاشاني ، فإذا بأحد رجال الدين يهمس في أذن آية الله بأن أمراً صدر من الشاه بإطلاق الرصاص على المتظاهرين ، فإذا بالكاشاني يصرخ في ابنه قائلاً :

ـ هات الكفن يا محمد . !

وجاء ابنه بالقماش الذي أعده للكفن ، وبدأ آية الله يغتسل ، ويتلو الصلوات ، ثمّ لفّ نفسه في الكفن ، وخرج مستعداً للقاء الموت . .

وكانت قصة الكفن قد سبقته الى كتل المتظاهرين فأحالتها الى كتل من البارود المشتعل . . ثم برز آية الله في كفنه ، فكان النار التي أشعلت البارود . . وإذا شوارع طهران تغلي بالحمم ، واللهب ، وتقدمت المظاهرة كأنها القضاء والقدر الى مبنى البرلمان . . وحين وصلت إليه كانت بنادق الجيش والبوليس قد أدارت فوهاتها بناء على الأوامر التي وردت من قصر (المرمر) بأن لا مقاومة للمظاهرة التي يقودها آية الله كاشاني .

في اليوم التالي كنا (فابيو) وأنا نتحلق حول آية الله كاشاني ونسأله :

ـ من الذي سيحكم إيران ؟

أجاب بعصبية وبنبرات فارسية قاسية :

ـ انّ من يستطيع تحريك الشعب ، وجمعه في مظاهرة صاخبة كما شاهدتم هو وحده الذي يستطيع أن يطهِّر تراب الوطن من رجس الأجنبي ،

ودنس الطغاة ، ويحكم بشرط أن يبقى إلى جانب الناس !

بعد ٢٨ عاماً يتكرر المشهد ، ويظهر مكان آية الله كاشاني ، آية الله الخميني فتفعل كلماته في الكتل البشرية فعل البارود ، ويجلس في القمة التي لم يجلس عليها قبله الأكاسرة ، وهي القمة الشعبية . .

وقبل أن تتمكن أجساد طلاب الجامعات ، وأفراد الشعب في طهران من مواجهة الدبابات ، وإجباو قادة أضخم جيش في الشرق على الإستسلام للشيخ القابع في محرابه يصلي كنت مع (فابيو) في يوم الجمعة ٢٣ شباط (فبراير) ١٩٧٩ نستعد لمقابلة آية الله الخميني في فرنسا قبل أن ينتقل إلى طهران بأيام قليلة .

كنت وأنا أستعد لهذه المقابلة احاول تفسير بعض الأفكار التي تطرق رأسي بقوة وتكاد تثقبه ومنها :

١ ـ حتماً كان مفاجأة أن ينضم الشعب الإيراني في الجولة الأخيرة بأسره تقريباً الى حركة الخميني . . وأن تصل أتوماتيكية استجابة الكتل البشرية له الى هذا المستوى الأسطوري . . إن مجرد مكالمة تلفونية واحدة يبلغها الدكتور (يازجي) معاون الخميني، أمامي ، ومن حجرة متواضعة جداً بقرية (نوفل ليشاتوه) بجوار باريس، أحد رجال الحركة في طهران توجيهات زعيمه . . تكفي لكي ينزل ٢ مليون إيراني إلى شوارع طهران وتبريز ، وقمّ . . . وانّ تسجيلاً بسيطاً على (شريط كاسيت) بكلمات الخميني يحمله (رسول) الى إيران . . يطبع منه في أقل من ٤٨ ساعة آلاف النسخ ليسمعها الملايين في المساجد ، والمدن ، والقرى . . وتلغي أثر كل ما تقوله إذاعة ، وتلفزيون ، وصحف طهران وقتها !.

ب ـ حتماً أيضاً كانت مفاجأة للعقول الالكترونية الدولية أن تكشف أن

الجيش الإيراني ـ نقطة الإرتكاز العليا في نظام الشاه ـ سيسلخ منه منذ اليوم الأول للصدام سلاح الطيران بأكمله . . وأن فرقة الحرس الأمبراطوري التي كانت تعمل باسم (الخالدون) لن تزيد مقاومتها الفعلية على ٢٤ ساعة . . وأن الجنرالات والجنود سيبحثون عن الاتصال بالخميني . . وأن الأسلحة كانت مخبأة منذ سنوات لدى رجال الخميني استعداداً لأن تتطور المظاهرات يوماً الى كفاح مسلح حينما تصبح حياة أو موتاً لحركة شعبية . !

ان أخطاء العقول الألكترونية الدولية ، وأجهزة المخابرات العالمية في هذا المجال بالذات سيكون لها آثار أبعد مما يمكن تخيله على مسلك من يهمهم الإستفادة (بالمصادر العالمية للمعلومات) لتحديد سياستهم القومية . . وقد يكون مردّ هذا الفشل الذريع . . في هذه الكلمة الهادئة الساخرة التي قالها لنا آية الله الخميني :

(فعلاً ، ومن حسن الحظ أن العقول الالكترونية يمكن أن تحسب كل شيء إلاّ مشاعر الشعوب) !.

أذكر ذلك ولا أنساه . .

أذكر أنني التفتّ بعدها الى السيد (اشراقي) زوج كريمة الخميني ، وقلت له :

(. . ونحن أيضاً في سورية لم تنجح العقول الالكترونية الدولية في أن تكشف مفاجأة قرار حرب رمضان ١٩٧٣ ثم مفاجأة وصول الجيش السوري الى مرتفعات الجولان ، والجيش المصري الى خط بارليف) . .

جـ ـ وكانت مفاجأة أيضاً أن يكتشف الرئيس الأمريكي (جيمي كارتر) وقت اشتداد الأزمة الإيرانية أن مستشاريه لم يستطيعوا الإجماع على رأي واحد . . حول كيفية معالجة الموقف . . وأمام (جيسكار ديستان) و (شميث) في اجتماع قمة الدول الغربية في (جواد يلوب) أفصح الرئيس الأمريكي كارتر لحلفائه الأوروبيين عن أن الخارجية الأمريكية لها رأي . .

والبنتاغون له رأي مخالف ، ومستشاره للشؤون الإيرانية له رأي ثالث يطالب بالتخلي عن الشاه . . ثم يفاجأ كارتر بالرئيس الفرنسي ديستان ، والرئيس الألماني شميث وهما يتفقان ، ويطلبان منه عدم تدخل أمريكا حتى لا يؤدي انفجار البركان الى ضرب المصالح الغربية ككل في ايران . . وانه يجب تطبيق سياسة (انقاذ ما يمكن انقاذه) . .

وأعطى كارتر وقتها (موافقةٌ صامتة) على استمرار (قنوات اتصال فرنسا مع الخميني) . . وقرر ارسال أحد كبار رجال سلاح الطيران الأمريكي الى إيران بمهمة محددة : (اقناع قيادات الجيش الإيراني بتفادي عمل أي انقلاب عسكري) ! .

د ـ وكانت مفاجأة أن يأتي الإعتراف بفشل العقول الالكترونية الدولية في توقع نتائج احداث إيران من الأدميرال (تبرتر) رئيس المخابرات المركزية الأمريكية آنئذ .

هـ ـ وكانت مفاجأة أيضاً أن جهاز الأمن الإيراني (السافاك) ذا السمعة الخرافية قوة وبطشاً ، لم يستطع الحركة أيضاً وقت أن احتدمت المعركة وعزم آية الله الخميني على العودة الى طهران .

و ـ ثم كانت مفاجأة للكثيرين أن يكون الطرف الخارجي الذي دفع (فوريا) ثمن الثورة في إيران هي (إسرائيل) . . ولكن ضربة الخميني للوجود الإسرائيلي لم تكن مفاجأة لمن يعرفون علاقة إسرائيل (الخاصة) ببعض قطاعات الجيش والأمن في إيران خلال حكم الشاه ، كما سيتضح ذلك في سياق البحث .

كانت هذه الأفكار وغيرها تتجمع في شاشة الذهن وتنطلق أمامي حين وجدت نفسي وصديقي « فابيو » أمام آية الله الخميني وجهاً لوجه . . إذ لم يكن مقدراً لجلسة الحوار التي عقدناها معه بعد ظهر الجمعة ٢٣ شباط « فبراير » ١٩٧٩ بقرية (ليشاتوه) الفرنسية أن تنشر . . لقد تعهدنا أن تكون

بمثابة استطلاع معلومات نحتفظ بها لنشرها في كتاب خاص عن الثورة الإسلامية في إيران .

لقد أديت يومها صلاة الجمعة التي أمّها الخميني داخل حديقة بيته . . (بيت المنفى) وكانت درجة حرارة الموقف في إيران ملتهبة ، وفي قرية المنفى (١٠ درجات تحت الصفر) ثم تحركت خلفه وهو يخرج من الخيمة منتصب القامة ـ رغم العاصفة الثلجية ، ورغم الثامنة والسبعين من العمر ـ ، ودخلت مع (فابيو) الى غرفة متواضعة في بيته لنجلس القرفصاء جميعاً ، وإلى جانبنا مستشاره وطبيبه الخاص الدكتور يازجي الذي يتكلم الإنكليزية بطلاقة وحضر كذلك الرجل الذي لم يفارق الخميني منذ بداية النفي (١٥ عاماً) وهو السيد اشراقي زوج كريمة الخميني ، وصديق لي من رجال الخميني (اعدم فيما بعد!) ، وفي هدوء يتناقض وقتها مع الموقف المتفجر في إيران بدأ آية الله الخميني يجيب على أسئلتنا التي سبق وأعددناها بصوت خافت يكاد يقرب من الهمس .

س ـ كيف يمكنكم تعريف الدولة الإسلامية التي تطالبون بها ؟

الخميني : اننا نريدها جمهورية لأنها تستمد سلطتها من الشعب ، ونريدها إسلامية لأن قانونها مستمد من شريعة الإسلام ، وهدفنا طويل الأجل هو اعادة بناء ما حطّمه الشاه خلال ثلاثين سنة ، وسيحتاج ذلك إلى وقت طويل لتحقيقه .

س ـ لقد لفت نظرنا نداءاتكم المتعددة للتعاون بين الشيعة والسنة لا سيما في خطاب شهير لكم في مدينة (قمّ) عام ١٣٨٤ هـ حيث ربطتم بين أهمية هذا التعاون وبين استقلال إرادة الدول الإسلامية ، فما هو تقييمكم لهذا الموضوع ؟

الخميني : إنني أعتقد تماماً أنّ الخلافات بين الشيعة والسنة كانت خلافات حول ألفاظ وكلمات ، وأنّ هذه الخلافات ضخّمها الأجانب ليمزقوا

وحدة الدول الإسلامية ويستخدموا في تحقيق هذا الهدف بعض الحكومات العميلة للقوى الخارجية ، ونسي الجميع ان وحدة الإسلام أمر بها الله وعمل من أجلها نبي الإسلام ، وأننا نعتبر الشاه هو أحد من ساهموا في خلق هذه الخلافات .

وفي الماضي عندما وجدت القوى الكبرى ان الدولة العثمانية ـ التي لم تكن تجمع كل الدول الإسلامية ـ كانت قادرة أحياناً على مقاومة القوى الكبرى وهزمت روسيا القيصرية ، بادرت القوى الكبرى بتجزئة الأمبراطورية العثمانية ـ بعد انتصار الحلفاء ـ إلى اجزاء متعددة ، وتحولت الى دول تحكمها نفس القوى الكبرى . لقد دعونا دائماً إلى وحدة المسلمين ، وأن تطالب الشعوب الإسلامية بنبذ الخلافات .

س ـ خصومكم اتهموكم في الماضي بإقامة تحالف إسلامي ماركسي ، ورغم غرابة هذا التعبير فما هو رأيكم ؟

الخميني : كل ذلك دعاية مقصود بها تلطيخ وجه الحركة الإسلامية ، والإساءة إليها . ان الإسلام والماركسية يقفان وجهاً لوجه متعارضين ، وحينما نقول ماركسية فحينئذ لا إسلام .

والمظاهرات التي اجتاحت إيران لم تتكلم باسم الماركسية . . الجميع يتكلمون باسم الإسلام ، ويطالبون بنظام الإسلام . ولن نقبل في هذا أي انحراف .

س ـ ما هي سياستكم البترولية بصفة عامة ، وتجاه اسرائيل بصفة خاصة ؟

الخميني : البترول بطبيعة الحال سنبيعه لمن يشتريه منا بالسعر العادل وحسب اتفاقياتنا المشتركة ، والفارق بيننا وبين من سبقونا هو أن عائد البترول سيفيد إيران فعلياً في أهداف التنمية . . أما إسرائيل ومثلها مثل حكومة أفريقيا الجنوبية العنصرية فسنرفض بيع البترول

إليهما ، طالما استمرت سياستها المناهضة للحق والقانون والسلام .

س ـ من ناحية الجغرافيا السياسية كيف تتخيلون مستقبل علاقات إيران مع دول الخليج والمملكة العربية السعودية ؟ .

الخميني : سيكون لنا معهم علاقات حسن جوار ، وتعايش ، فهذه هي أحكام الإسلام ، ولكن في حالة ما إذا كانت بعض هذه البلاد ستنتهج منهجاً ضدنا ، فلن نحتمل أن نقبل ذلك .

س ـ يتهمونكم بالعودة الى الوراء ، فلنأخذ مثلاً موضوع المرأة ، ونسألكم عن دورها في المجتمع الإسلامي الذي تنادون به ؟

الخميني : ان رؤية الإسلام الأصيلة الى المرأة تقتضي :

اولاً : ان المرأة متساوية تماماً مع الرجل في الوظائف والمسؤوليات مع احترام الإختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة على المستوى البيولوجي ، والسيكولوجي .

ثانياً : حق المرأة في العمل والدراسة والنشاط الإجتماعي .

ثالثاً : للمرأة سياسياً ـ تحت ظل الحكم الإسلامي ـ حق الترشيح ، والإنتخاب في الحكومة الإسلامية .

رابعاً : ما يعترض عليه الإسلام هو تحويل المرأة من أداة إيجابية فعالة إلى مجرد دمية للتمييع ، والإستهتار ، والفساد . هذا هو حكم الإسلام في ظل التقدم .

س ـ لو سئلتم تعريفاً عن شخصيتهم فما هو جوآبهم ؟

الخميني : لقد كنت مجرد طالب علم . . وما زلت طالب علم : أتلقى دروس الحياة . . كل ما هنالك ان الشعب وجد انني اعبّر عما يجيش في نفسه فتولدت المودة بيني وبين الشعب في إيران ، ومن هنا بدأ الطريق . .

س ـ ما هو موقفكم من الإتحاد السوفييتي ، وما هو موقف الإتحاد السوفييتي

من حركتكم ؟.

الخميني : انني لا أعرف بالضبط نوايا الإتحاد السوفييتي ، وإذا لم يتدخل في شؤوننا فلا علاقة لنا به ، ولكن أقول بصراحة لو تدخل الإتحاد السوفييتي في شؤوننا الداخلية فلن نحتمل ولن نقبل .

س ـ يقال ان رؤساء الدول الغربية الأربعة في قمة (جواديلوب) ـ كارتر ، ديستان ، شميث ، كالاهان ـ اتفقوا على سياسة غربية موحدة تجاه إيران . . فما رأيكم ؟

الخميني : أتمنى أن يكون الرؤساء قد فكروا بروح العقل ، وأتمنى أن يقبل رؤساء الغرب فعلياً إرادة الشعب الإيراني .

وأتمنى كذلك رغم علاقة الرؤساء بالشاه أنهم يكفون عن أي مساندة له حتى يأخذ إيران طريق الإصلاح الحقيقي .

س ـ كتاباتك ، وخطبك وأفكارك خلال اكثر من ربع قرن تجعلنا نتساءل من المفكر ، أو القائد، الذي تأثرت به في حياتك ؟ يقولون انه آية الله شيرازي الذي قاد الكفاح ضد الإنكليز منذ حوالي قرنين من الزمان ؟

الخميني : فعلاً الإمام شيرازي كان من أكبر علمائنا في عصره ، وقمة عالية من قمم مجتهدينا ، ويجب أن نأخذ بتعاليمه ، ولكني لم أعش عصره ، وعرفت تلاميذه ، والذي نعمله الآن هو تطبيق مبادئه .

عالم الأسلحة .. والبترول .. والمخابرات

من القصص التي اشتهرت، وانتشرت في أمريكا خلال سنوات (١٩٧٩ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨١ ، ١٩٨٢) قصة (الكارثة سنة ٧٩) . وبطل القصة أو محورها هو الشاه (محمد رضا بهلوي) .

وشخصيات القصة خليط من الشخصيات الحقيقية بأسمائها المعروفة ، ومن الشخصيات الخيالية التي تكمل سياق القصة المثيرة .

الشخصيات الحقيقية هي تلك الشخصيات الايرانية ، والاوروبية ، والامريكية ، التي تدور أسماؤها في عالم البترول ، وعالم الاسلحة ، وعالم البنوك وأرصدتها الهائلة ، وعالم المخابرات ، والجاسوسية ، والمؤامرات الدولية .

وقد وضع المؤلف الأمريكي (بول فريدمان) هذه القصة في سنة ١٩٧٦ .. وتصور نهايتها في سنة ١٩٧٩ .. حين أمر الشاه جنرالاته وعلماءه بإلقاء القنبلة الذرية على آبار البترول في البلاد العربية المجاورة ..

ودمرت القنبلة الذرية آبار البترول .. واشتعلت النيران في جوف الأرض فتفّجر وأخذ يقذف بالحمم والبراكين .. وسرت النار في مهب الريح في كل اتجاه .. فاحترق بترول العرب ، واحترق معه بترول إيران .. ولم

ينـج أحـد في هـذه المنـطقـة التي كـانت تسمى بـالـشـرق الأوسط الآّ (إسرائيل) !

ولكن تدمير آبار البترول بـالقنبلة الذريـة إلى أن نضبت وجفّ ما فيهـا ، قـد أحدث كـارثة كبـرى في أوربا وأمـريكا ، وفي العـالم كله . . وسرعـان ما انهارت اقتصادياته ، وتحطمت حياتـه المادية ، وأخذ ينجـرف جميعاً بمـا فيه اسرائيل ، في تيار الخراب ، والدمار !

تقـع هذه النهـايـة المـروعـة في عـام ١٩٧٩ . . . ولهـذا سمى المؤلف قصته (الكارثة سنة ٧٩) .
لماذا هذه التسمية لهذا الكتاب الخرافي ؟ .

كـانت هذه الـرواية ، ومـا زالت ، وستظل من أكثـر القصص ذيوعـاً في أمريكا ، وظلت عشرة أسابيع متتاليـة تحتل مكـانها في قـائمة أوسـع القصص انتشاراً ، وهذا من الأرقام القياسيـة في بلد تقذف مـطابعه كـل أسبوع بمئـات من القصص والروايات .

وقـد كتب نقّاد الصحف كثيـراً عن هذه القصـة ، وقالـوا إنّ أروع ما في هـذه القصة المفـزعة انهـا قريبـة جـداً من الـواقـع . . وان مـا تخيله الكـاتب القصصي من الممكن أن يحـدث . . وان يحدث بين عشيـة وضحـاهـا . . أو يحدث في يوم واحد في وضح النهار !

وتسلسل الحوادث في القصة الخيالية يتفق أحيانـاً ، ويشبه أحيـاناً تسلل الوقائع في حياة الشاه رضا بهلوي . ! أو على الأصـح خلال السنـوات الأخيرة التي مضى فيها إلى انفاق آلاف وآلاف من المـلايين ليضع تحت يـده ترسـانة هائلة ، قيل إنها الثالثـة ، أو الرابعـة بين ترسـانات العـالم ، بما تكـدس فيها من طائرات وصواريخ ، ودبـابات ، ومـدافع ، وبـوارج ، وغواصـات . . ومن كل اسلحة الحـرب والدمـار . . فلم يبق بين إيران ، وبين القـوتين العظميين في العـالم الاّ أن تكون في هـذه الترسـانة (قنبلة ذريـة) . . وهي هذه القنبلة

التي تخيلها كاتب القصة ، وتخيل ما فعله الشاه ليحصل عليها ، وتحدث عمن صنعها من العلماء ، وعمن كان هناك من الوسطاء . !

ان العالم السويسري (هارتمان) ، وابنته اليهودية (اورسولا)، وصديقها العالم الإسرائيلي الاستاذ (بن ليفي) ، والعالم الإيراني الأستاذ (براهيمي) ، ومدير (السافاك) - شاهاد تبريزي - هي اسماء اطلقها كاتب القصة على شخصيات حقيقية وجدت في الواقع الذي جرت فيه عملية شراء الأسلحة بملايين الدولارات ، والذي أدّى في النهاية الى الأحداث المذهلة التي وقعت في إيران ، والتي حددت مصير الشاه !.

وبعيداً عن هذه القصة التي امتزج فيها الواقع بالخيال ، اعرض هنا عرضاً سريعاً وقائع وحقائق في موضوع الأسلحة التي اندفع الشاه الى شرائها :

ما هي العوامل .. ومن هم الأشخاص .. وما هي المغامرات والمؤامرات التي أحاطت بهذه المرحلة الغريبة والمريبة ؟ .

في سنة ١٩٧١ أصيب الميزان التجاري الأمريكي بأول عجز في تاريخ امريكا خلال القرن العشرين .. وكان أهم اسباب هذا العجز هو حرب فيتنام التي استنزفت كثيراً من موارد امريكا ، وأرهقت كاهل الفرد بالضرائب ..

ان ما بددته امريكا في حرب فيتنام يفوق حدّ التصور .. فقد قال (دين راسك) وزير خارجية امريكا في أبان اشتداد الحرب وهو يناقش أحد السياسيين العرب :

(لا تكثروا من الكلام عن مصالح امريكا في البلاد العربية .. ان كل ما يدخل الى خزانة امريكا من البلاد العربية لا يزيد عن نفقات حرب فيتنام في اسبوعين اثنين) !.-

جرى هذا الكلام في عام ١٩٧٢ ، وهو يصور مدى وطبيعة النظرة

الأمريكية التي كانت واشنطن تنظر بها الى العالم العربي ، وإلى مصالحها في هذا العالم .

وراحت امريكا تفكر في طرق تسدد بها هذا العجز الكبير في ميزانها التجاري ، وقررت أن يكون من بين هذه الطرق بيع الأسلحة على أوسع نطاق . . ومنذ ذلك الوقت لم يعد الهدف الوحيد من بيع الأسلحة الأمريكية هو تدعيم أمن أصدقاء امريكا ، وبالتالي أمن أمريكا نفسها . . لقد كان هذا هدفاً رئيسياً ، ولكن الى جانبه هدف آخر لا يقل أهمية . . هو الهدف المالي ، وسدّ العجز في الميزان التجاري . وبدأت هذه السياسة في عهد الرئيس (جونسون) ووزيره للدفاع (روبرت مكنمارا) ، وبدأت عمليات بيع الأسلحة للكسب المالي على نطاق ضيق . . ثم جاء نيكسون إلى البيت الأبيض ، وجاء وزير خارجيته (هنري كيسنجر) . . فقررا المضي في سياسة بيع الأسلحة الأمريكية على نطاق واسع لمن يستطيع أن يدفع ثمنها !

ووجدت امريكا عند شاه إيران الرغبة الشديدة في شراء أقوى وأحد ث الأسلحة الأمريكية . . ووجدت أنّه ليست هناك مشكلة في دفع ثمن الأسلحة عند التسليم ، أو قبل التسليم . . ووجدت شيئاً آخر يسهل مهمة البيع والشراء في شتى أنواع الأسلحة . . فان الشاه يكاد يكون خبيراً في شؤون الأسلحة وخاصة في شؤون الطائرات ، والصواريخ ، وأيضاً في شؤون السفن الحربية ، والغواصات . . وهو يمضي جزءاً كبيراً من وقته يدرس (كاتالوكات) هذه الأسلحة ، ويطالع المجلات المتخصصة في شؤون الأسلحة الجوية والبحرية . وهو يحمل عن جدارة واستحقاق ، رخصة قيادة في الطيران . . وقد قاد الطائرة بنفسه وهو يودع إيران ويغادرها الى موطن آخر .

وقد غَذّى فيه هذا الميل ما مرّ به من تجارب قاسية منذ صباه ، فقد كان يشعر شعوراً قوياً بأنّ الناس في بلاده ، وخارج بلاده ينظرون إليه على أنّه ليس ملكاً مستقلاً بمعنى الكلمة . . . وانه شخصياً يعيش دائماً في حمى

احدى الدول الكبرى.

لقد انتزع والده العرش من أسرة مالكة عريقة ، أمّا هو فقد جاء الى العرش عن طريق بريطانيا . . كان هذا سنة ١٩٤١ عندما قرر تشرشل ، بالإتفاق مع ستالين ، عزل والده الشاه الكبير عن العرش ، ونفيه الى جنوب افريقيا . . ووقف تشرشل في مجلس العموم البريطاني يقول :

(اننا طاردنا ملكاً طاغية ، وأرسلناه الى المنفى . . وجئنا مكانه بملك دستوري شاب) ! .

وانتهى دور بريطانيا ، وجاء دور امريكا . . فلما قامت ثورة في إيران تريد تأميم البترول ، وتريد في الوقت ذاته ازاحته عن العرش بتهمة التعاون مع بريطانيا ، اضطر ان يغادر هو وزوجته إيران . .

عندما حدث هذا كانت امريكا وراء (الثورة المضادة) التي أعدت خطتها ، وأمدتها بالمال ، فعاد الى بلاده ، ولكن ظل يخامره شعور غير مريح بأنه مدين بعرشه الى امريكا !

ولم يكن هذا الشعور سهلاً على ملك شاب شديد الإعتداد بنفسه ، وشديد الإعتزاز بوالده الشاه الكبير . . وكان هذا وذاك من الدوافع التي تجعله يحلم ، على غير أساس من الواقع ، بأن يعيد الى عرش إيران مجد أكاسرة الفرس في غابر الزمان .

والطريق الى هذا المجد هو السلاح !

وإذا كان كسرى قد بنى ملكه بالسيوف والرماح والخيول ، فليعد هو هذا المجد القديم بالطائرات والدبابات والغواصات .

والواقع ان الشاه أراد منذ سنوات بعيدة ، وقبل أن يتدفق البترول في غزارة ، وقبل أن ترتفع وتتضاعف أسعاره ، أن يشتري من امريكا انواعاً من أكثر الأسلحة تطوراً وتقدماً . . وكان هذا في عهد الرئيس كينيدي . . ومع ما

كـان بين شاه ايـران والرئيس الأمـريكي من صداقـة جمعت بين الرجلين كمـا جمعت بين زوجتيهمـا ، الاّ ان السيـاسـة الأمـريكيـة فـرضت نفسهـا على الموقف . . فتقرر أن تبيـع أمريكـا لإيران كميـات محددة ، ونـوعيات يقـررها خبراء أمريكا ، وليس وفق ما يتطلع إليه الشاه من أسلحة بالغة التقدم .

وأكثـر من هذا . . فـان أمريكـا في عهد كينـدي لم تأخـذ مأخـذ الجـدّ موضوع بناء جيش إيران على مستوى جيوش الـدول الكبرى . . وكـان كينـدي في رسائله الى صديقه الشاه يقول له :

(ان ترتيب البيت من الداخل أولى من التسليح) . .

وكـان يشير إلى أنّ الأمن والإستقـرار في الداخـل يتـطلبـان مـزيـداً من العدالة الإجتماعية !

. . ومضت سنوات بعد هذا ، وتفاقمت حـرب فيتنام ، وبـدأت أمريكـا سيـاسة جـديدة عبّـر عنها المبـدأ المعروف بـاسم (مبدأ نيكسـون) ، والـذي اعلنت فيه امريكـا انها لن تـرتكب مرة أخـرى الأخطاء الفـادحة التي ارتكبتهـا في حرب فيتنام حين أرسلت جنودها يحاربون ويموتون ويشـوهون في غـابات الهنـد الصينيـة . . وحيث قتـل من ابنـاء أمـريكـا أكثـر ممـا قتـل في الحـرب العالمية الثانية !

لقـد قرر مبـدأ نيكسون انـه من الآن وصـاعـداً ستقـوم أمـريكـا بـامـداد الأسلحـة لحلفائهـا الـذين تعتمـد عليهم . . (لأن أفضـل الـطرق الى خفض التزاماتنا ، وأيضاً الى خفض نفقاتنا ، هـو أن نـجد شعـوباً صـديقة تتحـالف معنا ، فإن هذه الشعوب ستدافع عن أمنهـا أكثر ممـا نستطيـع نحن أن ندافـع عنـه . . وبهذا تحمي هـذه الشعـوب نفسهـا ، وتحمي أيضـاً مصـالحنـا . . . ولتحقيق هذا الهدف يجب أن نبيع ، أو نعطي ، لهـذه الشعوب مـا يلزمها من أدو'ت الحـرب . . فتتحمل بنفسهـا هذه الأعبـاء البـاهـظة التي اثقلت كـاهـل الشعب الأمريكي في فيتنام . .).

هـذا هو المبـدأ الـذي بـدأت تسيـر عليـه امـريكـا منـذ عهـد نيكسـون

وكيسنجر . .

وهكذا وجد شاه ايران أبواب امريكا مفتوحة لشراء الأسلحة . . وبدأ يحقق الرغبة التي استبدت بتفكيره وهي أن يجعل من إيران قوة عسكرية يحسب الآخرون ، كباراً وصغاراً ، حساباً لها .

وبدأ الشاه يتخير الأسلحة التي يريد شراءها من أقوى وأحدث طراز . .

وهنا بدأت تظهر في الميدان اسماء معينة ابرزها :

- امريكي اسمه (كيرميت روزفلت) .
- وامريكي آخر اسمه (توم جونز) . .
- واسترالي اسمه (كولين جب) . .
- وشخص اسمه (هوشانج لافي).
- والجنرال خاتمي قائد السلاح الجوي الإيراني . .

والجنرال (حسن لوفانيان) المستشار العسكري للشاه . .

وأسماء أخرى إيرانية ، وعربية ، وأوروبية وامريكية تشكل بينها قصة ، عندما نعرف تفاصيلها بالكامل ستكون أكثر إثارة من قصة (الكارثة سنة ٧٩) .

ان هذه الأسماء التي تمرست في ميدان المؤامرات الدولية ، وشراء الأسلحة ، هي الأسماء التي تعنون بها الفضائح في الصحافة الأجنبية ، فأخذت تخزّن المليارات في البنوك الاجنبية على حساب دم الشعوب التي تراق هدراً . . ان نظرة فاحصة على أرصدة بعض هؤلاء من امثال الدكتور (ع . ع) و (ع ، ق) و (أ ، ع) و . . و . . تظهر لنا بوضوح دور اليهودية في تثقيف هؤلاء وتدريبهم ودفعهم لتدمير العالم العربي عن طريق تزويد المتحاربين بالسلاح . ولكي ندرك خطورة عمل هؤلاء الأفاعي لا بد لنا من القاء نظرة خاطفة على معلميهم وفي طليعتهم (كيرميت روزفلت) .

ان هـذا العميل الأمـريكي هـو حفيـد الـرئيس الأمـريكي (تيـودو روزفلت) ، وقـريب الـرئيس الأمريكي فـرانكلين روزفلت . . ولـه مـظهـر ارستقراطي مترفع جعله من أقدر وأكفأ رجال المخابرات الأمريكية .

كان « كيرميت روزفلت » يـومها قـد ترك ادارة المخـابرات المركزيـة ، وعينتـه شركـة (نورثـروب) ، احدى الشـركات الأمـريكيـة الكبـرى لصنـاعـة الـطائرات والصـواريخ ليكـون حلقة اتصـال بينهـا وبين شـاه إيـران ، واتفقت معـه ، مقابـل مبلغ كبيـر ، على أن يقـوم مكتبـه في واشنـطن بمهمـة محـددة لمصلحة الشركة وهي (مراقبة جميع النشاطات في الشرق الأوسط) . .

هـذه هي المهمـة التي اسنـدتهـا الشـركـة الى مكتب « كيـرميـت روزفلت » . . وهـو المكتب الذي كـان يعلق فيه ثـلاث صـور فقط . . صـورة تيودور روزفلت ، وصورة الشاه رضا بهلوي ، وصورة ثالثة

وكان اختيار كيرميت روزفلت اختياراً موفقاً . . فهناك علاقـة قديمـة بينه وبين الشاه ترجع الى سنة ١٩٥٣ أيـام حركـة تأميم البتـرول . . فعندمـا أممت حكـومة محمـد مصدق الشـركة البـريطانيـة التي كانت تحتكـر بترول إيـران ، تـطورت الحركـة واشتدت وانقلبت الى ثـورة واسعة ، فـانسحبت بريطانيا من الميـدان . . وبينمـا كـانت ثـورة إيـران في ذلـك الـوقت في أوجهـا ، عقـد اجتمـاع (سـري) في سـويسـرا اشتـركت فيـه أخت الشـاه الأميـرة شمس ، والسفيـر الأمـريكي في طهـران (لـوي هنـدرسـون) ، ومـديـر المخـابـرات المـركزيـة الأمريكيـة (آلين دالاس)، وكيرميت روزفلت أحـد الكبار في إدارة المخابرات . . وفي هذا الإجتماع السرّي ، والذي كتب عنـه فيما بعـد ما لا يحصى من الكتـابات ، أعـدت الخـطة لإحبـاط الثورة التي قـامت بـزعـامـة الـدكتور مصـدق ، وتأييـد آية الله كـاشـاني ، ثم تسلل إليهـا حـزب (تـوده) الشيوعي وكاد يسيطر عليها . . وكانت الخطة هي إقـامة (ثـورة مضادة) عهـد الى كيـرميت روزفلت بـأن يجمـع عنـاصرهـا ، ويضـع في أيـديهـا السلاح

والمـال . . واقناع الشـاه بمغادرة إيـران لكي تثـور العنـاصـر المـواليـة لـه في الجيش ومعهـا كثيـر من زعمـاء القبـائـل . . وقـامت تلك الثـورة المضـادة ، وسـرعـان مـا عـاد الشـاه إلى إيـران ، وسيق الـدكتـور مصـدق الى السجن ، وحكم بـالإعدام ، ونفـذ الحكم في وزير خـارجيته الشـاب الـدكتـور (حسين فاطمي) .

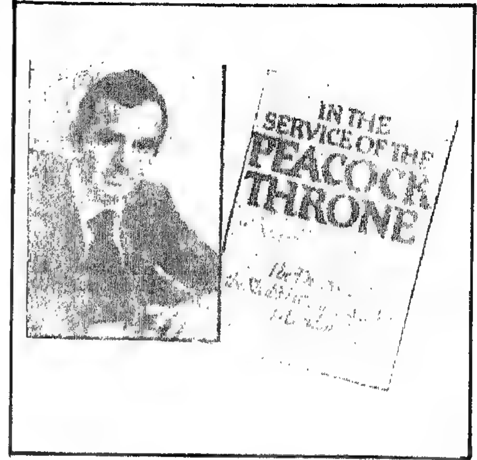
منذ ذلك الـوقت ارتبط اسم كيرميت روزفلت بـإيران . . ولهـذا وجدت فيـه شركـة (نور ثـروب) خير من يكـون حلقـة اتصـال بينهـا وبين الشـاه . . وبينها وبين صديقه القديم الجنرال (ختامي) قائد السلاح الجوي .

ودعـا شـاه إيـران مستـر كيـرميت روزفلت وزوجتـه لتمضيـة اجـازة في إيران ، وفي اثناء الإجازة وقع حادث اعتداء على حيـاة الشاه ، وصـار واضحاً ان ايّ اتفاق مع إيران إنما يتـوقف على شخص واحد هـو الشاه ، فـلا بدّ من إقامة نظام محكم لحماية شخص الشاه .

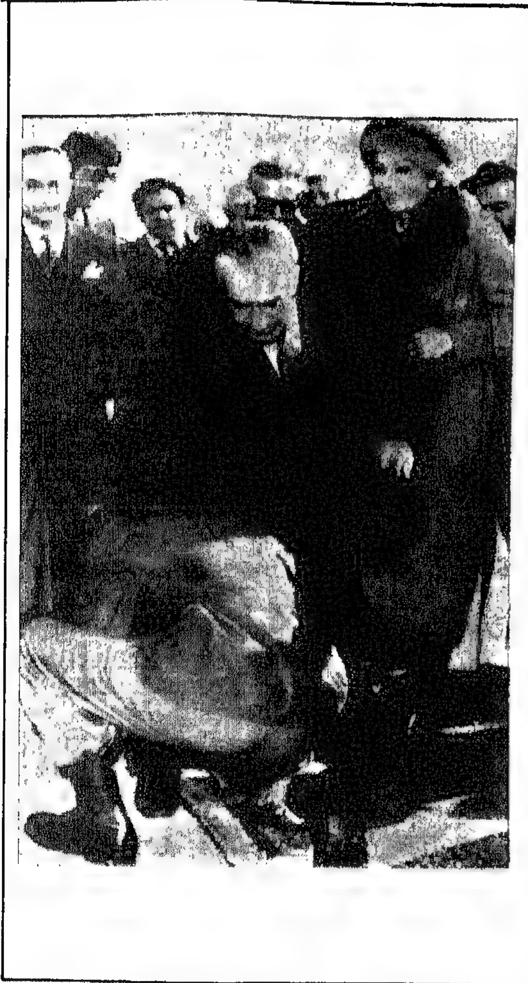
وعاد روزفلت الى طهران بعد ستة شهـور ليبحث مع السلطات الإيـرانية مشروعاً اليكترونياً يستخدمه سلاح الطيـران ، ويستخدمـه أيضاً جهـاز البوليس السـري . . جهاز (السـافاك) . وكـانت مهمـة روزفلت ، بعـد أن أدّى هـذه الخـدمـة لإيـران هي أن يبيـع احـدى الـطائـرات التي انتجتهـا شـركـة (نورثروب) . . وهي طائرة اسمها (كوبـرا) . . أو (الأفعى) ، وهي طائـرة متطورة من طائـرة اسمها (النمـر) كان الشـاه قد اشتـرى عدداً منهـا ، واقترح هو نفسه اشياء لتطويرها وتحسينها ، فأخـرجت هذه الـطائرة الجـديدة . . التي يريد الشاه شراء عشرات منها ، ولكن هذا يتطلب مـوافقة الـرئيس الأمريكي ، ومـوافقـة البنتـاغـون ، ومـوافقـة وزارة الخـارجيـة ، ومـوافقـة الكـونغـرس الأمـريكي . . إذا سارت الأمـور في مسيرهـا الطبيعي وفق القـواعد والسيـاسة الأمريكية المتبعة في بيع هذه الأسلحة المتقدمة للدول الأجنبية . .

وهنـا لا بد ان تلعب المنـاورات السيـاسيـة دورهـا . . ولا بـد ان يقـوم الشاه نفسه بدور سياسي يذلل هذه العقبات .

صنع لنفسه عرشاً من الشوك
ثم لم يجلس عليه طويلاً



« في خدمة الطاووس » يوميات آخر سفير للشاه في لندن من تأليف السفير « بارنيزراجي »!



نشرت جريدة التايمس البريطانية هذه الصورة يوم سقوط الشاه وكتبت تحتها :
آخر قبلة طبعها مواطن إيراني . . كانت عند قدمي الشاه فسجل على نفسه وعلى الشاه هذه الصورة من الهوان التي يرتضيها الإثنان معاً !!

مذكرات آخر سفير لشاه إيران في لندن !

تحت أرجلهم سجاجيد عليها اسم الشاه ، وفي أيديهم مسدسات عليها اسم : الله . . وقامت الثورة على الشاه . . والعالم كله يعرف أنها آتية لا ريب فيها الاّ الشاه نفسه .

وعندما اقترب من الشاه أحد الوزراء الشجعان يهنئه بعيد الفطر المبارك قائلاً :

آخر الأعياد . .

قال الشاه :

آخر أعيادك أنت .

! قال الوزير :

من الممكن أن تجيء أعياد أخرى اذا اعتدلت . !

قال الشاه ساخراً :

الإعتدال يكون في السجائر ، والخمر . . وليس في الإصلاح . !

وعندما قالت الشاهبانو فرح ديبا للشاه تعليقاً على هذه الجرأة من أحد الوزراء :

ان هذا الموقف الإنتحاري يدل على إخلاصه لك . . غضب منها الشاه قائلاً :

تريدين أن تقولي إنك أيضاً من أتباع الخميني ؟!

قالت الشاهبانو :

لا أظنك تقصد ذلك . ولكن أنظر أنت أيضاً كيف تضايقك الحقيقة . !

ومواقف أخرى مثيرة وعجيبة يرويها السفير (بارفيزراجي) في يومياته التي عنوانها (في خدمة عرش النطاووس - يوميات آخر سفير للشاه في لندن) . وهذه اليوميات تبدأ يوم (٤ حزيران - يونيو - سنة ١٩٧٦) وتنتهي يوم (٢٦ كانون الثاني - يناير - سنة ١٩٧٩) وهي بالضبط فترة تحددت فيها كل معالم سقوط الشاه ، ومجيء (آية الله روح الله الخميني) ، وبداية الثورة الإيرانية . .

وهذه اليوميات هي نموذج لما يجب أن يفعله السفير من أجل بلاده . فهو رجل ذكي يصطاد الهدوء في المياه المضطربة . ويبعث بهذا الصيد بمنتهى الدقة ، والحفاوة ، والأناقة إلى حكومته . وأكثر الذي يبعث به يلقى بنفس العناية ، والحفاوة في صناديق زبالة الخارجية أو القصر الأمبراطوري . . ولكنه لا يتوقف عن لقاء كل الشخصيات البارزة والهامة في لندن ، من رجال السياسة ، والصحافة ، وكل الذين يتوقفون في لندن ذهاباً وإياباً إلى إيران . ولا تزال لندن هي ملتقى كل الإتجاهات ، والإنحرافات ، ونشاط الجاسوسية العالمية ، ولذلك فالدول الواعية ، تبعث بأهم رجالها إليها .

والسفير صاحب اليوميات كان يعمل سكرتيراً للسنيد بختياري آخر رئيس وزراء للشاه ، وكان يعمل سكرتيراً للأميرة أشرف أخت الشاه ، ومندوبة إيران في الأمم المتحدة ، والتي كانت هدفاً لغضب الجماهير . فقد تحيّر الناس في فهم شخصيتها . . فهي تذهب كل عام الى « مكة »، ومنها الى « مونت كارلو »، ثم العكس !

ولما انطلق عليها الرصاص في جنوب فرنسا ، ومات سائقها ، وجرح

حارسها ، ولم تصب هي بسوء قال لها السفير بارفيز :

أعرف ما الذي ستقولين : ان بركة « مكة المكرمة » هي التي أنقذتك ـ

فكان ردها :

كنت سأقول لك ذلك .

ولكن « مكة المكرمة » لم تكن حمايتها كافية فقد مات السائق ، وجرح الحارس .

وكان ردها : بل كانت بركتها . فقد نجوت أنا ، وهذه هي المعجزة!

وطبيعي ان يستخف السفير بالدين ، فهو الذي يقول في يومياته :

انّ أهم ما يقوم به أي سفير هو أن ينقذ البروتوكول ، وأن يشرب الكحول !

وعلى الرغم من أن السفير كان في لندن ، فان أصداء طهران ترنّ في أذنيه . . المظاهرات والرصاص . . غير أنه لم يكن يتصور أن هناك ثورة حقيقية الى ان فوجيء السفير بالمتظاهرين من الطلبة الايرانيين في لندن يدّقون أبواب السفارة ، ونوافذها ويقولون .

الشاه مجرم . . الشاه مجرم !

يقول السفير ان هذه الهتافات جعلته يرتد بخياله بسرعة إلى بداية (الثورة البيضاء) ، و(الثورة الخضراء) في أوائل الخمسينات ، والإصلاح الزراعي والإجتماعي . لقد كان الشاه يفرض بالقوة إصلاحاته على الناس . ويحاول بالعنف أن ينقل بلاده من العصور الوسطى الى العصور الحديثة دون تمهيد لذلك . . فأصبح في إيران كل أنواع المتناقضات بين الفلاحين ، والموظفين ، بين الجيش والبوليس . . بين الدخول المتوسطة ، والثروات الهائلة للساسة والوزراء ، والأسرة المالكة . . لقد استطاع الشاه بمنتهى الدقة أن يمزق إيران الى دول كثيرة ، كلها ينكر بعضها بعضاً ، وينكر الشاه ويستنكره . وأعطى للجماعات الدينية القوية الحق في أن

تحتشد ، وأن تقف ضدّه . .

وعندما قرأ السفير « بارفيز » في إحدى الصحف البريطانية هذه العبارة على لسان الشاه شعر بدوخة . ولم تكن دوخة شخصية ، وإنما هي دوخة قومية تاريخية . قال الشاه :

(لا يستطيع أحد أن يسقطني . ان نصف مليون جندي يقفون ورائي . ووراءهم أغلب العمال وكل الفلاحين . . أما هؤلاء الغربان السود من رجال الدين فأنا أستطيع أن أشتريهم وأبيعهم بأيّ ثمن ، وفي أية سوق . !)

وهي عبارة تدل على غضب الشاه ، وفي نفس الوقت على فقدانه لتوازنه السياسي ، وانعدام نظرته البعيدة والقريبة . . انها آخر صرخات اليأس . . ان هذه العبارة تدلّ على أن سقوطه محتوم ، أو هو قد بدأ السقوط فعلاً . .

والأمريكان هم الذين طلبوا إليه أن يصلح قوانين البلاد . . . ثم عادوا يهمسون ، ويلمزون ، ويسخرون من العدل الإمبراطوري ، والحقوق الإنسانية . وانفتحت عليه الصحف الأمريكية وبعدها الصحف البريطانية ، تتهمه بالطغيان ، والإستبداد ، وإهدار حقوق الإنسان .

وكان السفير (بارفيز) يبعث لوزارة الخارجية ، والقصر الأمبراطوري بما تنشره الصحف وما يذيعه الراديو والتلفزيون . . وكانت الكمّيات كبيرة جداً . . وتتزايد . وهذا يدل على أن الأمبراطور حريص على أن يعرف ماذا يقال عنه في بريطانيا . وكانت الصحف البريطانية تعرف انه يحبّ أن يوصف بديغول الشرق . . ولذلك كانوا يوجعونه عندما يصفونه بأنه (ديغول) بلا (غول) - أي (ديغول) الذي لم يحصل على (غول) واحد تحقيقاً لطموحه السياسي ! .

وكان يحب من الذين يصفونه بأنه (ديغول) ان يقولوا أيضاً : إنه

طويل مثل (ديغول) . . وأنه يحاول بعدد قليل من الأتباع المخلصين أن ينقذ بلاده كما فعل (ديغول) أثناء الحرب العالمية الثانية . . وأنه سابق لأوانه . وأنه لذلك غريب عن أهله ، وأرضه ، وزمانه . .

وإذا كانت الصحف البريطانية هي التي زعزعت المكانة العالمية لشاه إيران ، فان الصحف الأمريكية هي التي تركته يسقط .

وعندما التقى السفير بالشاه ، صارحه الشاه وهو يدور حول نفسه امامه : بأن الإنكليز لايريدون من إيران شيئاً سوى المال . .

ثم قال :

إن الصحف تهاجمني لأن بريطانيا تريد أن تكرهني على شراء طائرات (الكونكورد) التي تنتجها مع فرنسا . .

وفي ذلك الوقت هاجم شاب إيراني بجعة في حديقة الحيوان ، ثم قتلها !

ولم يجد السفير تفسيراً أو تبريراً لذلك . . ولا عرف كيف يدافع عن هذه الجريمة المزدوجة ، وهي مزدوجة لأنه معروف أن طائر البجع يعيش اثنين اثنين . . فإذا ماتت واحدة ، فان الثانية تضرب عن الطعام حتى الموت . وحزن الشعب الإنكليزي على موت البجعة ، وازدادوا أسفاً على الموت المنتظر للثانية ، وبعد شهر ماتت الثانية ! .

ونشرت الصحف أن مقتل البجعة ليس أملاً سياسياً ، فالقاتل يحلم بأن يقتل سيد إيران وزوجته !

ولم تنفع كل النصائح الأمريكية لشاه إيران ـ هذا رأي السفير ـ ففي سنة ١٩٦٢ اختلف الرئيس كينيدي مع شاه إيران حول صفقات السلاح الضخمة التي بريدها ، وقال له كينيدي : ان كثيرين من المستشارين يترددون في الحديث إليك . . ولكني اتخذت قاعدة لا أحيد عنها : (لا خوف من الحوار معك ، ولا حوار مع الخوف) فالذي تطلبه من السلاح فادح الثمن ،

ثم أنك لا تحتاج إليه . .

وهدد الشاه بأنه هو أيضاً سوف يلجأ إلى الإتحاد السوفييتي لشراء ما يحتاج إليه ، لأن جمال عبد الناصر فعل نفس الشيء قبل ذلك !

وعندما بعث السفير (بارفيز) بإحدى المقالات التي نشرتها الصحف البريطانية الى الشاه ، أعجبته جداً ، وطلب طبعها وتوزيعها على السفارات الأخرى . وبلغت سعادة الشاه درجة أن تلقى السفير تهنئة من أحد سكرتيري الشاه . المقال يقول :

ان الفيلسوف الإيطالي مكيافيللي ، وهو استاذ السفالة السياسية في كل العصور ، مسؤول عن سفك كثير من الدماء في العالم . ولكن الدماء التي سفكها ماكيافيللي أقل بكثير من الدماء التي أراقتها الديانة المسيحية في حروبها ، كما أن الحكومات القوية أكثر قدرة على إسعاد الناس من الحكومات الضعيفة . لأن الحكومة الضعيفة هي امّ الفوضى . وعلى الرغم من أن الفوضى هي أمّ الحريات المتضاربة ، فان الفوضى هي أعدى أعداء الحضارة الإنسانية !.

وفي نهاية المقال :

إن الحاكم القوي أقل ضرراً من الحاكم الضعيف . . والطبيب الذي يضرب المريض حتى يتناول الدواء ، أفضل ألف مرة من الطبيب الذي يلقي بالدواء عند قدمي المريض !.

وفي ذلك الوقت أعلن الرئيس كارتر :

إنّ أمريكا يجب أن تعتدل في خوفها من الشيوعية ، لأن الخوف قد دفع امريكا الى مساندة أي طاغية يعارض السوفييت . ولذلك وقعت امريكا في أخطاء كثيرة من أهمها مساندة الطغاة الأفّاقين مثل (مندوزا) طاغية نيكارغوا . . ثم ان تجربة امريكا في فيتنام أكبر دليل على سوء الإختيار ، وحماقة القرار : !

يقول السفير (بارفيز) تعليقاً على ذلك :

ان مثل هذه العبارة لا معنى لها بالنسبة لأي مواطن إيراني وللشاه بوصف خاص . فحدود إيران المشتركة مع روسيا تبلغ الف ميل . . وقد أثبتت الستون عاماً الماضية ، ان الخوف من روسيا حقيقة سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية ، ودينية ، فليتقدم كارتر بنصيحته هذه لاي شعب آخر ! او حتى لأمريكا التي لم تخسر في الحرب ولم تكسب في السياسة .

وتضايق الشاه جداً عندما نشرت احدى الصحف البريطانية نكتة إيرانية قديمة . . النكتة تقول : لم يجرؤ أحد أن يكذب على والد الشاه !

ويقول السفير :

ولم يجرؤ أحد أن يقول الحقيقة للشاه ! إن الأحداث التي تتوالى في إيران جعلته في حالة دفاع دائم عن النفس ، وعن الشاه . . فقد قتلت الجماهير عدداً من الأمريكان . . وانطلق رصاص الشاه . . وانطلق رصاص البوليس والجيش على الشعب . . واحترقت احدى دور السينما في مدينة « عبدان » بكل من فيها ، وما فيها . . واحتشد رجال الدين في مدينتي (مشهد) و (قمّ) . . وأخذت الصحف العالمية ، والإيرانية تنشر في صفحاتها الأولى صور الخميني ، وظهرت صحف أخرى سرّاً تطلب من الشاه أن يخرج . وأن خروجه هو انقاذ لإيران .

وفي احدى الليالي زارته الأميرة (مرغريت) ، وتنقلت بين المدعوين في قاعات بيت السفير ، ووقفت عند صورة كبيرة ظهر فيها السفير بين الشاه والشاهبانو ، والسيدة انديرا غاندي . قالت الأميرة : ان الأمبراطورة لطيفة باسمة . . والأمبراطور متجهم . . ثم من هذه . . ؟

فقال السفير :

انها السيدة « انديرا غاندي » . .

وابتعدت الأميرة مرغريت عن الصورة ثم اقتربت منها وقالت بغضب :

طاغية . . !

ولم يفهم السفير من الذي تقصده بهذه الصيفة . !

ولما جاءت السيدة (مرغريت تاتشر) لزيارته أيضاً برفقة زوجها ، أبدت اهتماماً شديداً بالبترول الإيراني ، وعائدات البترول . . وفي كل مرة يحاول زوجها أن يقول شيئاً تقاطعه زوجته قائلة : ولكن يا عزيزي هذا ما يعرفه السفير جيداً . .

ولم تغير هذه العبارة ، ولم يكمل زوجها عبارة واحدة بدأها ولكنهما زوجان لطيفان منسجمان . .

وعندما زارته الاميرة آن قال لها السفير ، انه قرأ كتاباً عن عمها الملك ادوارد الثامن . وانه قد وجد تفسيراً لسلوك عمها هذا . . . فقد ولد في بيئة قاسية لا تعطيه اي قدر من الحرية . فأحسّ بأنه إنسان محفوف بالمخاطر ، وليس لديه أي شعور بالامان ، وأنه عاجز تماماً عن اتخاذ ايّ قرار لنفسه أو لبلده . . فقالت : .

انّ هذا صحيح ، ولكن تصوّر انّه كان معجباً بالنازيين . ! تصور . . أما عن هذه التربية فان أبي مثله تماماً . انّ تربية الملوك سيئة عادة !

وهذا من سوء حظّ الشعوب !

وعندما التقى السفير بارفيز بالشاه في طهران قال له الشاه :

ماذا يريد الإنكليز ؟ هل يريدون أن استورد الديمقراطية البريطانية ؟ مستحيل . . ولا الديمقراطية الفرنسية أيضاً . انا أعرف بالضبط القدر الصحيح لما يحتاج اليه شعبي .

ولما تشجع السفير وقال للأمبراطور انه بعث بتقرير من عدة صفحات عن موقف الصحف البريطانية لم يعلق الأمبراطور على ذلك ، ولما عاد السفير وقال ان لديه تحليلاً دقيقاً لإتجاهات الرأي العام اشار الأمبراطور بأن يعطي التقرير لسكرتيره . .

ومن المؤكد انه لم يقرأ شيئاً ، لأنه لا يريد أن يقرأ . وهو لا يريد أن يقرأ لأنه يضيق بالنقد . .

وقد أعاد التلفزيون البريطاني صورة الأمبراطور والأمبراطورة ، والرئيس

كـارتر وزوجتـه وهم جميعـاً يمسحـون الـدمـوع من عيـونهم . . فقـد تـظاهـر الإيرانيون أمـام البيت الأبيض وأطلق البوليس عليهم قنـابل تسيـل الدمـوع . . ولأول مـرة يشعر السفيـر أن هذه الـدموع طبيعيـة . . وان الأمبراطـور لا بدّ أن يكون قد انتهزّ هذه الفرصة ليبكي حقاً .

وكان الكاتب الأمريكي (آرثر ميللر) بين المتظاهرين ضـد الشاه الـذي مـلأ السجون بـالمواطنين والـذي اعتقل الكتـاب والأدباء . وقـد ظهر الكـاتب على شاشة التلفزيون . . سئل (آرثر ميللر) :

ألا تعرف ان الشاه صديق لأمريكا ؟

فأجاب :

أعرف ، ولكن يجب أن يكون صديقاً لشعبه أولاً . .

سئل :

ولماذا لـم تبعث ببرقية للشاه بهذا المعنى ؟

أجاب :

ان ألـوف البـرقيـات لا تحـل مشكلة واحـدة . . انهـا تضـايقـه فقط . !

سئل :

لماذا لـم تطلب مقابلته ؟

أجاب :

انني ارفض أن أقابل رجلاً يرفض مقابلة الأدباء في بلاده . !

وعندما ذهب الشـاه ، والشاهبـانو الى نيـودلهي عاصمـة الهند ، كـانت المـظاهرات الصـاخية تمـلأ الشوارع وتسـدّ الطريق أمـامهمـا . . وفي احـدى الصحف الهندية جاءت هذه العبارة :

« لا بـد ان الأمر قـد اختلط على الشاه الآن . . فهـو لا يعـرف ان كـان هؤلاء المتظاهرون في بلاده أو بلادنا . ! »

أمـا بقيـة الأحـداث التي تسـارعت في إيــران ، وتجمعت ، واشتعلت

فهي معروفة . وكان السفير يلاحق الأحداث بالتلفون ، وينتظر العائدين والذاهبين الى بلاده . . ويتلقى التلفونات من الجواسيس ، والصحفيين ، والسفراء . . وأخيراً جاءته النصيحة :

اجمع اوراقك واسحب اموالك وقدم استقالتك واهرب بجلدك . . انه الطوفان ، وآية الله الخميني هو (نوح) الذي جاء ينقذ إيران . . إهرب أحسن لك ! .

وزادت المظاهرات على شاشات التلفزيون . ورأى السفير رجال الدين ينثرون الزهور على الجنود قائلين :

ان الأخ لا يقتل أخاه . . إننا أخوة . . وهو عدو الله . !

وكلما أصدر الرئيس الأمريكي كارتر قراراً أو تعليقاً ، أو دعوة للإصلاح ، أو السلام تذكر السفير عبارة قالتها الأميرة البريطانية آن . . قالت له مرة :

ذهبت لأشاهد السوق الأوربية المشتركة . . لم يبهرني سوى الرئيس الفرنسي (جيسكار ديستان) . . انه شخصية بارزة أنيقة رشيقة . . لا تستطيع أن تتجاهله . . بينما هذا الرئيس الأمريكي كارتر إذا دخل أي مكان فان أحداً لا يهتم به ولا يدري به . . انه أي شيء . . وأنا أقول لك رأيي بصراحة . . لأنني لست ملكة ، ولا وريثة للعرش . . أنا أي أحد . . أنا أي شيء . . فلا خوف من أن يتناقل الناس هذا الذي أقوله لك . .

وأحسّ السفير ان كارتر وإدارته وحكومته أيضاً : شيء من ذلك . . ثم تدارك هذا الإحساس وأيقن أيضاً أن الحكومة الأمريكية ، والإدارة الأمريكية ، والرئيس الأمريكي هم الذين رسموا للشاه سلالم الهاوية . ثم تنصلوا منه قبل السقوط بلحظات . . فالشاه هو الذي صنع لنفسه عرشاً من الشوك ، ثم لم يجلس عليه طويلاً !

وقد تبدو هذه اليوميات عادية ، أو سخيفة ، ولكنها الدبلوماسية ، قادرة

على أن تروي بصورة لطيفة كل الأحداث السخيفة . .

ثم ان هذه اليوميات تحتوي على الكثير جداً من الآراء لكبار الساسة والقادة في بريطانيا ، وتسجل صدى الأحداث في إيران في حرية وشجاعة . . وفي نفس الوقت تكشف عن مدى حساسية الأمبراطور للصحف ، أو للآراء الأخرى . . أي حرصه على صورته كيف تكون ، كيف يجب أن تكون ، وكيف هي كائنة . . وكيف انه لا يستطيع أن يشتري كل الصحف كل الوقت ، ولا بعض الصحف كل الوقت ، وكيف ان الصحف العالمية لو أيدته وعارضه شعبه ، فان أحداً لا ينقذه من الغضب المحتوم .

ولما خرج الشاه من إيران كانت الدموع تملأ عينيه تماماً كما خرج والده . . وقد ملأ جيوبه بتراب من أرض الوطن ، فقد كانت عزيزة عليه . . وان كان هو قد هان كثيراً عليها وعلى أهلها . .

ثم استقبله الرئيس السادات في أسوان . . وبدأت بعد ذلك رحلة البحث عن مكان يموت فيه . . وضاقت عنه الدنيا كلها ليستقر أخيراً حياً وميتاً في أرض مصر . .

﴿ ما أغنى عنه ماله وما كسب ﴾!

صدق الله العظيم

بعد ثورات ثلاث ارتفع نداء
« زندباد اسلامْ »

على المستوى العقلي البحث . . تولد أي ثورة كما يولد البركان من جوف الأرض نتيجة صراع بين ضغط الأرض وغليان المعادن المنصهرة . . لا شيء يولد قبل وقته ولا بعد وقته . . إنما يجيء كل شيء بأوانه . . وحين تبلغ درجة حرارة المعادن المنصهرة حداً يدفعها الى الخارج تندفع خارجه ويرمي الجبل حمولته الجوفية من اللّهب المصهور والحريق السائل ، هكذا جرى في إيران .

لقد استفاد الخميني من كل أخطاء الشاه ، وهي أخطاء كان الشاه يجلس فوق بركانها سنوات طويلة . . وليس صحيحاً ان الثورة في إيران وقعت في أيام معدودات . . . القى الجبل حممه في أيام . . . ولكن الثورة نفسها ثمرة أوضاع يقترب عمرها من عمر الخميني . . وقد وعى عقل الذين خططوا للثورة في إيران هذه المرة أخطاء الماضي القريب ، فوضعوا الوجه الإسلامي للثورة . . وكان من أولى أهداف الخميني أيصال رجال الدين من أنصاره الى السلطة ، وقد تم ذلك بعد تخطيط ودرس .

والذين يقيّمون الثورة في إيران على ضوء ما يجري في الثورات المماثلة يجهلون خلفيات المذهب الجعفري .

ان تركيب بنية الشعب الإيراني تختلف عن أي شعب آخر في

المنطقة ، فهو نتيجة ميراث من التاريخ الشيعي . شعب يدين بولائه للأئمة الدينيين ، ونظام الإمامة جزء جوهري في عقائد الشيعة في إيران خاصة . . ومن كلماتهم :

(من ليس له امام فالشيطان امامه) .

ونصرة الإمام علي (كرم الله وجهه) حق له وواجب على اتباعه ، وقد استفاد الخميني من القدرة التنظيمية للشعب ، وعلى امتداد السنوات الطويلة تحرك الخميني واستولى على العقول ، واحتل الفراغ الروحي والوجداني الذي فشلت اجهزة حكم الشاه في أن تملأه بشيء له قيمته ، كما استفاد من الفراغ السياسي الذي صنعته الديمقراطية المزيفة في إيران ، والأحزاب (الهلامية) التي صنعها النظام السابق ، كما استفاد أيضاً وأيضاً من التفاوت الرهيب بين مستويات الفقراء والأغنياء . . واستفاد باختصار من كل مظاهر الخلل والظلم في المجتمع الإيراني ، وهو مجتمع يعيش في تناقضات اجتماعية مذهلة بينما كان دخل الدولة من البترول يبلغ ٨٠ مليون دولار يومياً .

وأسرعت اجراءات القمع التي لجأت إليها الحكومات الإيرانية السابقة في إيغار الصدور ، حتى جاء الوقت الذي نضج فيه البركان فانفجرت فوهته واندفعت منه الحمم ، وبدأ الصراع بين شعب تقوده السلطة الدينية ، وجيش تقوده السلطة المدنية . . وهو صراع وصفته لجنة تقصي الحقائق الأمريكية التي زارت إيران في أواخر حكم الشاه بأنه يشبه الثورة الفرنسية . . فإن شعباً بأكمله يتجه نحو هدف واحد . . تحت زعامة واحدة ، رغم اختلاف افكاره وصوره .

ورفعت الثورة علم الإسلام منذ اليوم الأول ، وكان هذا إشارة بعدم انتماء الثورة الى الشرق او الى الغرب .

فما هي قصة القيادة الدينية التي تمسك الآن بالسلطة وتسيّرها ؟

حين كانت الإذاعات والصحف ووكالات الأنباء تنقل نبأ استقالة السيد مهدي بازركان رئيس الحكومة الإيرانية الأسبق وقيام المجلس الثوري الإسلامي باستلام السلطة بناء على أمر من آية الله الخميني . . في تلك اللحظات عزمت على جمع ما لدي من معلومات عن مشاهداتي في إيران يوم كنت مراسلاً لجريدة الجمهورية القاهرية ، وقد قمت يومها بتغطية اخبار الثورة التي قادها الدكتور محمد مصدق وآية الله الكاشاني قبل أعوام .

كانت الخطورة في قرار الخميني لا تتمثل في إقدام رجال الدين لأول مرة في تاريخ إيران على استلام السلطة بدون حدود وقيود، ولكن الخطورة تكمن في كون هؤلاء بالذات هم الذين سيقررون مستقبل إيران . ذلك انه بين الزعامات والجماعات الدينية في إيران وبين الشاه السابق (ثأر قديم) . . ثأر يرجع إلى أيام والده الشاه الكبير رضا بهلوي الذي تولى الحكم في عام ١٩٢٦ في وقت بلغت فيه هذه الزعامات والجماعات مبلغاً عظيماً من القوة والنفوذ ، وكانت هذه الزعامات والقيادات هي التي أوصلته الى عرش إيران الذي كانت تتربع عليه أسرة (قاجار) ، ثم بطش بها وأسكت صوتها ، وفرق جموعها ، وفتك بقادتها فتكاً بشعاً لم يعرفه التاريخ الإسلامي في كافة مراحله المتعاقبة .

بدأت هذه الجماعات الدينية تظهر قوتها في ميدان السياسة الإيرانية حين وقفت امام الشاه ناصر الدين وهو أقوى حكام أسرة (قاجار) وأشدهم مراساً وأوسعهم حيلة وأكثرهم ذكاء ودهاء . . . أول موقف عدائي علني .

فعندما منح الشاه ناصر الدين احدى الشركات الإنكليزية عقداً باحتكار زراعة (الطباق) وصناعته للتدخين أصدر الزعماء الدينيون فتوى بأن التدخين حرام . . . فامتنع عامة الشعب الإيراني عن التدخين . . وتوقفت أعمال الشركة الإنكليزية ، وفقد الشاه نصيبه من أرباح الشركة ، وكان هذا أكبر دخل لخزانة الدولة حينذاك . . . فاضطر الشاه الى ان يلغي عقد امتياز الشركة ، وأن يعيد الامور الى ما كانت عليه ، كما ستوضح

التفاصيل فيما بعد .

وعندئذ عاد عامة الناس الى التدخين . . . وفي كثير من الإسراف . . وسكت زعماؤهم الدينيون ، لأن فتوى تحريم التدخين كانت قد استنفذت أغراضها . . وهي أن يثبتوا قوتهم تجاه الشاه ، وتجاه الإحتكاريين الإنكليز . . .

وظلت هذه الحركة الدينية تقوى وتنتشر . . يغذيها جمال الدين الأفغاني خلال إقامته في استنبول ، ويثيرها على الشاه . . حتى خرج من بين مريدي الأفغاني شاب طعن الشاه ناصر الدين وهو يقول :
(خذها من يد جمال الدين الأفغاني . .) .

وسقط هذا الحاكم القوي ، وجاء بعده ابن ضعيف . . حاول ان يهدىء الحركة الثائرة في إيران ، فأصدر دستوراً . . رضي به بعض الناس ، ولم يعبأ به معظم الشعب . . وجاء من بعده خلفاء أكثر ضعفاً واستكانة استعانوا بالدولتين الكبيرتين القويتين . . . لا سيما روسيا المترامية في الشمال على حدود إيران ، وانكلترا الرابضة ببوارجها الحربية في الخليج وشواطئه . . فلم تلبث إيران بأرضها ومواردها ، أن صارت نهباً للروس والانكليز معاً !

كان رضا بهلوي رجلاً فذاً من طراز الحكام الأقوياء الذين يبنون الدول ، ويشقون لبلادهم طريقاً جديداً غير الطرق التي ألفتها وأدت بها الى الضعف والإضطراب .

كان عصامياً بمعنى الكلمة . . بدأ حياته جندياً في حرس امبراطور فارس وتولى الإشراف على خيول الشاه . . ثم ترقى في الجيش فصار ضابطاً ، ثم جنرالاً ، ثم وزيراً للحربية . ثم صار رئيساً للوزارة ، ثم رئيساً للدولة . . فقضى على أسرة (قاجار) وصار امبراطوراً لإيران . . وارتكب غلطته الأولى حين غير اسمه من (رضا خان) ، إلى (رضا بهلوي) . .

وصارت اسرة بهلوي هي الحلقة الحديدية في سلسلة الأسر التي تربعت على عرش إيران منذ الفين وخمسمائة سنة . . ولهذا كان عرش إيران يعتبر اقدم العروش في العالم . .

وبدا أن الشاه يبني إيران الحديثة . .

كانت هناك موجة فكرية وسياسية تغمر العالم الإسلامي المجاور لأوربا . . تغمر تركيا ، ثم إيران ومعها افغانستان . . وكانت هذه الموجة تملأ عقول الناس بأنّ تأخر هذه البلاد يرجع الى رجال الدين ، والى سيطرتهم على عقول العامة ، وإلى نفوذهم في أمور الدولة . وصار رجل الدين في هذه الدول الثلاثة رمزاً للمتخلف والتأخر . . سواء كان رجل الدين هذا يشغل منصب (خليفة المسلمين) في تركيا . . أو يحمل لقب (آية الله) في إيران . . او يسمى (الملاّ) في أفغانستان .

وفي كل دولة من هذه الدول الثلاث اصطدم رجل الدولة ، برجل الدين . .

الأول معه الجيش والبوليس وعدد من المثقفين ثقافة أوربية . .

والثاني معه مشاعر الناس ومعه ايضاً قداسة اللقب أو المنصب .

والظاهرة الغريبة والمشتركة في الزعماء الثلاثة الذين تولوا زمام الأمور في هذه الدول الإسلامية أن كلا منهم كان يمتلىء رأسه وقلبه بفكرتين متناقضتين ، او متعارضتين :

الأولى هي الفكرة القومية ، أو الحماسة الوطنية الى درجة التعصب العنيد .

والثانية هي الإعجاب الاعمى بكل ما هو أوروبي مهما خالف التقاليد والاوضاع الموروثة والراسخة في مشاعر الناس .

هكذا كان شأن مصطفى كمال في تركيا . .

فتاريخ العالم كما رآه اتاتورك يبدأ من تاريخ تركيا المعروف . . وهو تاريخ بالنسبة الى غيره يكاد لا يذكر ، ولكن التلميذ التركي يجب أن يعرف أن تاريخ العالم بدأ فقط عندما قامت امبراطورية بيزنطة . . !

واللغة التركية يجب تنقيتها من الكلمات العربية والفارسية ، وهما يكوّنان ثلثي اللغة التركية على الأقل ! ولم يشجع أتاتورك تعليم اللغات الأجنبية ، فخرج جيل قلّ فيه من يعرف سوى اللغة التركية .

وأهم من هذا ـ ولعلها حسنة من حسنات اتاتورك ـ أن قرر الاّ تضم دولته أرضاً لا يكون أهلها اتراكاً أصليين صميميين . . فصفى الأمبراطورية العثمانية أو ما تبقى منها بعدما حلّ بها من هزائم !

ورفض أن يحكم مناطق في البلقان وكان أهلها يطالبون بأن أرضهم جزءاً من تركيا ، وقال : لا أريد ان يكون في بلادي الا من يجري في عروقه الدم التركي الأصيل ! ولا يدري احد حتى الآن لماذا أقدم اتاتورك على ضم لواء الإسكندرونة العربي الى الأراضي التركية ، بالرغم من ان اللواء السليب هو جزء من سورية عبر التاريخ . وربما كان اتاتورك هو اول وآخر ديكتاتور في التاريخ رفض توسيع دائرة الدولة التي يحكمها ، بل وعمل على تضييق هذه الدائرة ليبعد عنها كل العناصر الدخيلة ، وليتجنب ما تثيره من خلافات ومتاعب .

كانت سياسته قومية خالصة . . بل كانت اسرافاً ومغالاة في المظاهر القومية .

ولكنه من ناحية أخرى كان يريد أن تكون تركيا دولة أوربية عصرية في مظهرها ، وفي جوهرها .

وكان كل ما في أوروبا يعجبه ويبهره وكل ما في الشرق يستهزىء به ويستنكره . فخلع الطربوش ولبس القبعة ، وحرم على الناس لبس الطرابيش .

أما الطرق الصوفية التي كانت منتشرة في تركيا فلم يعد لها مكان في

دولتـه الحديثـة . . . فإذا أثـار بعض رجال الـدين مشاعـر النـاس ، فتجمعـوا وتـظاهروا محتجين ، فليس عنـد أتاتـورك الا المشنقة التي علق عليهـا رقـاب رجـال الطرق الصوفية . .

واللغـة التركيـة تقرر ان تكتب بـالحروف الـلاتينية مثلمـا تكتب اللغـات الأوروبية . . . . وقرر أن يطبع المصحف الشريف وبالحروف اللاتينية .

أما المرأة التـركية التي كـانت مضرب المثـل في أنها سيـدة بيت متسترة محـافظة ، فقـد خـرجت سـافـرة . . وصـارت تحضـر الحفـلات العـامـة . . ويشجعهـا أتاتـورك على أن ترقص مـع الرجـل . . فكان يفتتـح حفلاتـه دائماً بأن يرقص مع إحدى السيدات التركيات .

وأخطر من هذا طبعـاً ان محاكم تـركيا صـارت تطبق قـانونـاً مستمداً من القـوانين الاوروبية حتى في مسـائـل الأحـوال الشخصيـة ، فتقضي مثـلاً بمنـع تعدد الزوجات ، وتقضي بالمساواة بين الأولاد والبنات في الميراث .

وقـد سبق هذا كله الغـاء الخـلافـة الإسـلاميـة . . فقـطع هـذا العمـل الخطير ما بين تركيا وبين الشعوب الإسلامية طوال عهد أتاتورك !

وهكذا فان الـرجل الـذي وقف بجنوده وبنفسـه في خنادق (غـاليبولي) ليصد الغزو الاوروبي لتركيا ، وحمى العـالم الإسلامي من وراء تـركيا من تلك الغـزوة الضاربـة ، هـو نفسـه الـذي أسبـغ على تـركيـا ثـوبـاً أوروبياً لا دينيـاً فضفاضاً . .

لم تعمـر الثورة الإصـلاحية التي قـادها ملك الأفغـان أمـان الله خـان ، فسـرعان مـا اطبق عليها الإنكليـز ليحولـوا دون امتداد الثـورة الإصلاحيـة بين تركيا وإيران وأفغانستان ، فقام (بـاجاسقـا) سايس الخيـل بانقـلابه الـذي لم يعمـر سـوى أيـامٍ قليلة ، فهـرب أمـان الله وزوجتـه ثـريـا عبـر الجبـال حيث وصلوا إلى إيـران ، ومنهـا إلى رومـا حيث قضيـا بقيـة أيـامهمـا بعيـداً عن الوطن .

ومثل ما حدث في تركيا حدث في إيران تحت حكم الشاه رضا بهلوي ، الذي كان يرى في أتاتورك مثلاً أعلى يقتدى به .

انه أيضاً ممتلىء القلب بشحنة من الوطنية الإيرانية . . وفي الوقت نفسه ممتلىء القلب إعجاباً بأوروبا وتطلعا إليها . . فحضارتها هي الحضارة . . ولا سبيل إلى التقدم والإرتقاء إلّا إذا أخذت إيران بكل ما تأخذ به أوروبا في حياتها المادية والإجتماعية . لقد تخلصت اوروبا من سلطان الكنيسة وسلطان البابوية على شؤون الحكم . . فلتتخلص إيران أيضاً من سيطرة رجال الدين على شؤون الدولة .

وليبدأ باغلاق الكتاتيب والمدارس التي كان التعليم فيها يقتصر على أمور الدين . . . ولتفتح مدارس ومعاهد تعلم الأولاد والبنات التعليم الحديث المعروف في أوروبا.

ولتكن في إيران قوانين حديثة . . تحل محل أحكام رجال الدين وتفسيراتهم . . واختار من بين القوانين الاوروبية القانون السويسري لتطبيقه في إيران . . .

ولتخلع المرأة حجابها . . ولتخرج على الناس سافرة . . أما ملابس رجال الدين . . تلك العباءة السوداء والعمامة السوداء ، وهما لباس الحداد على الحسين بن علي شهيد كربلاء ، وسيد الشهداء ، فلا يجوز ارتداؤهما الّا بأذن خاص من الحكومة ! وبهذا تحدد الحكومة عدد رجال الدين ، وتضعهم تحت رقابتها !

وثار رجال الدين في بعض الأماكن النائية ، وألّبوا الناس في مظاهرات معادية للشاه داخل المساجد ! فذهب الشاه بنفسه على رأس فرقة من الخيالة ، واقتحم مسجداً كبيراً . . وفعل رجاله مثله في مساجد أُخرى . . واعتقلوا الأئمة وألقوا بهم في السجون !

سلاح المال أقوى سلاح حارب به الشاه رجال الدين ، لقد منع عنهم الأموال الطائلة التي يدفعها الشعب لزعمائه الدينيين . .

فعلى كل إيراني أن يدفع (خمس دخله) من الزراعة والتجارة ، أو مرتبه ، أو أجره (لآية الله) . او لمن يمثله في قريته . . لينفق منها على المساجد والفقراء ، وما يره آية الله من أمور . .

. . ويعتقد الإيراني أنّ رزقه مرهون بأداء هذه الضريبة ، فإن شحّت بها يده أجدبت الأرض أو بارت التجارة أو أصابه المرض ، أو حلت به الرزايا !

هذه عقيدته ، والغالبية الساحقة من أهل إيران مؤمنة بهذا .

كان هذا هو السلاح الذي شهره رضا بهلوي ضد رجال الدين . . فاستكانوا ، وانزووا بعيداً عن الأنظار . . وكادوا يختفون من ميدان الحياة العامة ! مثلما اختفى ايضاً في عهد الشاه رضا بهلوي كثير من زعماء القبائل ورؤساء الأسر الكبيرة . . وصار هو الحاكم المطلق . . ولكن الحاكم المطلق في إيران لم يدم طويلا بعد هذا . . . لأنه لم يستطع ان ينجو من الدول الكبرى ومناوراتها ومؤامراتها .

كانت القوى الكبرى حينذاك ثلاث قوى : (بريطانيا ، ألمانيا ، روسيا) ، فالأولى رابضة ببوارجها وقواعدها في منطقة الخليج وشواطئه والثانية ممتدة على الحدود المفتوحة في الشمال . . فلما قامت الحرب العالمية الثانية وصارت إيران تحت رحمة القوتين الحليفتين ، روسيا وبريطانيا ، راح الشاه بهلوي يقترب من الألمان ، وخاصة عندما بدا له انهم سيكسبون الحرب ، عندما اجتاحت جيوش هتلر دول أوربا فسقطت في (أسابيع) !

وفعلاً كان رجال هتلر وعيونه يتسللون الى طهران ، ويغزون الشاه بوعود ينجزونها عندما تنتهي الحرب ويتحقق لهم النصر النهائي . . ولم

يستطع الحلفاء أن يسكتوا على هذا . . فإن إيران هي الطريق الوحيد الذي كانت تتدفق منه الأسلحة الأمريكية الى روسيا ، فاتفق تشرشل-وستالين على خلع الشاه . . . ووقف تشرشل في مجلس العموم ليعلن سنة ١٩٤١ :

(لقد قررنا خلع هذا الدكتاتور ونفيه من إيران . . وقد حلّ محله ابنه الشاه محمد رضا . . ملكاً دستورياً على عرش إيران) !

ودفن الشاه في أرض مصر ، ورأى الشاه الجديد أباه محمولاً على سفينة حربية انكليزية تذهب به الى جنوب افريقيا . . وظل في منفاه حتى مات في عام ١٩٤٤ في تلك البلاد الغريبة .

ورفضت بريطانيا أن تسمح بنقل جثمانه إلى إيران ، فدفن في مصر ، وظل جثمانه في أرضها سبع سنوات الى أن هدأت أعصاب الإنكليز وإلى أن تدفق بترول إيران . . فسمحوا بنقل الجثمان إلى إيران . .

شيع جثمان الشاه الى مثواه الأخير وسط جنازة عسكرية هائلة . . واصطف الشعب على جانبي الطريق صامتاً ساكتاً أول الأمر . . ثم بدأت الهتافات تنطلق وتتعالى . .

ولم تكن الهتافات باسم الشاه الكبير الذي أنشأ إيران الحديثة . .

كما لم تكن الهتافات باسم الشاه الشاب الذي حمل عبء المسؤولية الكبرى وهو في العشرين من عمره .

وإنما كانت الهتافات بحياة رجال الدين ، وبالمطالبة بتأميم البترول ، أي باسترداده من الشركة الانكليزية التي احتكرت انتاجه وتكريره وتسويقه . . كما كانت الهتافات باسم رجل برز اسمه في ايران والعالم حينذاك . . . هو الدكتور محمد مصدق . . الذي الف وتزعم جبهة وطنية تطالب بتأميم البترول .

وتحولت جنازة الشاه إلى مظاهرة وطنية كبرى ، مثلها مثل المظاهرات الصاخبة التي كانت تجوب شوارع طهران وغيرها من المدن الكبرى . .

وقد كشفت هذه المظاهرات عن أن رجال الدين الذين كانوا اختفوا عن الأعين منذ بطش بهم رضا بهلوي ، ما زال عددهم كبيراً ، وما زال نفوذهم الشعبي واسعاً ، وكشفت هذه المظاهرات أيضاً عن وجود قوة شعبية جديدة تتميز عن تلك الجماعات الدينية بأنها اكثر تنظيماً . . تلك هي قوة الشيوعيين التي يمثلها حينذاك حزب سياسي غير معترف به من جانب الحكومة . . ولكنه حقيقة واقعة في ساحة المجابهة الشعبية . . وهو حزب (توده) !

وبدأ الشاب يواجه هاتين القوتين الكبيرتين . . ولكن القوة الظاهرة أمام الناس هي قوة الجماعات الدينية ، ويتزعمها حينذاك (آية الله كاشاني) . . . الذي كان يعيش في المنفى في لبنان (بعلبك) مثلما عاش (آية الله الخميني) في النجف اولاً ثم في فرنسا .

وقد عاد الكاشاني بعد سنوات طويلة ليتزعم الثورة التي قامت في إيران تطالب بتأميم البترول .

كانت ثورة شعبية واسعة النطاق ، وجهها (المدني) هو الدكتور محمد مصدق ، ووجهها الديني هو آية الله كاشاني !

وكان الكاشاني كما رأيته في أبّان صعوده قوة شعبية يستطيع تسيير مظاهرات هائلة وفي إحدى هذه المظاهرات قرر الجيش أن يتصدى بقوة السلاح . . . ووقفت الجموع الحاشدة وجهاً لوجه أمام كتيبة من الجيش وقد شهرت بنادقها وصوبت المدافع . . وصارت المعركة او المذبحة واقعة ولا شك إن لم تحدث معجزة تمنع الصدام . .

وحدثت المعجزة . . ولكن على غير ما يتوقع الإنسان !.

لقد أتى آية الله الكاشاني بكفن . . وذهب بنفسه الى الميدان ، وكنت على بعد خطوات منه ، ورفعه اتباعه فوق رؤوسهم أمام الحشود الهائلة . . ونزع ملابسه . ولفّ نفسه بالكفن . . استعداداً للموت . واشتعلت النـ ان

في القلوب . .

قلوب مئات الألوف من الناس الذين قرروا الموت . . وتحول الموقف الى مواجهة مرعبة بين جيش في يده السلاح ، وبين أفواج تؤمن بأنّ الموت في هذه اللحظة هو استشهاد في سبيل الدين . .

ولو انطلقت رصاصة واحدة . . ولو سقط قتيل واحد . . نشبت حرب أهلية في إيران من أقصاها إلى أقصاها .

وهنا حدثت المعجزة . . . ويهدي الله الشاب الشاه ، فيصدر أمراً جازماً لجيشه ان يدير فوهات البنادق والمدافع بعيداً عن المتظاهرين . . وكانت مظاهرة الكفن هذه حديث العالم حينذاك .

وكذلك كان حديث العالم جمعية إرهابية اسمها (فدائيان اسلام) التي أهدرت دم كل من تتهمه بأنه يساند الشاه او يتعاون مع الإنكليز . . واهدر « نواب صفوي » زعيم فدائيان اسلام دم أقوى رجل في إيران حينذاك وهو الجنرال (رازماراه) الذي كان قائداً للجيش وعينه الشاه رئيساً للوزراء، وفي لحظة خاطفة سقط الجنرال في صحن المسجد حين ذهب للصلاة . بينما قاتله يصيح :

(زندباد اسلام . . زندباد إسلام) أي يحيا الإسلام . وتولى الدكتور مصدق رئاسة الوزراء ، ومضى مقرراً تأميم البترول ، بقرار جماعي أصدره البرلمان ، وكانت هذه ساعة النصر كما تخيلها الكاشاني ومصدق ، ولكنه كان نصراً خادعاً . . فقد كانت هناك قوة كبرى تنتظر الفرصة المواتية وتتربص . . . تلك هي حزب (توده) الشيوعي ، الذي لم يكن اتباعه شيئاً يذكر إلى جانب انصار آية الله الكاشاني ، ولكن الحزب الشيوعي كان يمتاز بالتنظيم ، وفي خلال أيام قليلة فوجيء العالم بأن الشيوعيين هم القوة المسيطرة على الساحة في إيران . . . وغادر شاه إيران الشاب ومعه زوجته الثانية الملكة ثريا أرض إيران إلى إيطاليا في إجازة لم تدم طويلاً ، فعاد

بعدها إلى إيران لتبدأ صفحة جديدة في تاريخ هذه البلاد . . ولكن الصفحة سرعان ما طويت وجاء الخميني واعياً لأخطاء الثورات الثلاث التي قام بها رجال الدين أيام الشاه محمد ناصر ، وأيام الشاه رضا بهلوي ، وأيام الشاه ابنه . . فعمل على تطبيق خطته الخاصة التي نسجها خيطاً خيطاً وهو في منفاه .

١ ـ أقام تنظيماً هرمياً متماسكاً ، بحيث لا تستطيع قوة منظمة من الخارج ضرب الثورة من الداخل كما جرى أيام الكاشاني حين تسللت الولايات المتحدة الأمريكية من باب الخطر الشيوعي على إيران فدخلت الى قلب ثورة الكاشاني بواسطة الأموال الهائلة التي دفعتها الى بعض رجال الدين .

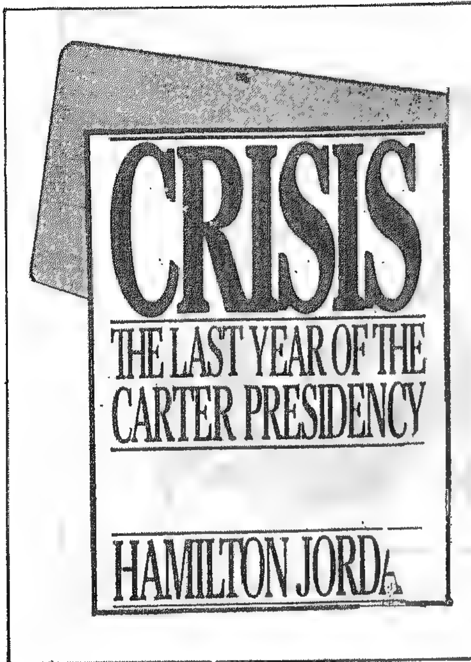
٢ ـ يخطىء من يظن ان عملية السفارة الأمريكية في طهران واحتلالها من قبل الطلاب هي عملية مرتجلة . . لقد رسم لها أن تكون بمثابة انذار موجه الى واشنطن لكي لا يعيد التاريخ نفسه فتسلل الى داخل الثورة الإسلامية من جديد وتضربها كما فعلت باخت لها من قبل .

٣ ـ الذين بنوا تحليلاتهم على وقوع الخلاف بين الخميني وحكومة بازركان تنقصهم المعلومات ، فنصف اعضاء الحكومة بما فيهم البازركان هم اعضاء في المجلس الإسلامي الثوري الحاكم .

ولكن كل هذا لا يمنع من أن الثورات تأكل اولادها واحفادها ، وانها تتعثر ، وتخطىء وترتكب الخطايا ايضاً . ولكنها امر واقع . وهنا لا بد ان نلاحظ ان قاعدة الخميني التنظيمية الأساسية تضم (١٨٠) ألفاً من رجال الدين ، ستة منهم يحملون لقب (آية الله) وواحد فقط يحمل لقب (آية الله العظمى) .

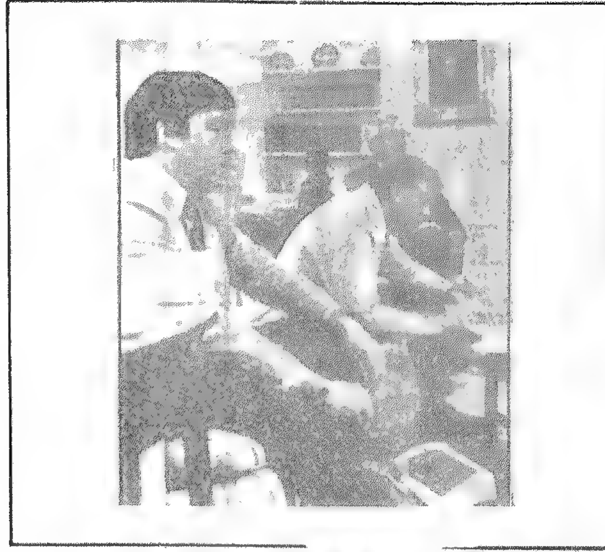
ولكي نلقي الأضواء على عملية اقدام الطلاب على احتلال السفارة

الأمـريكيـة في طهـران نقـدم فيمـا يلي ملخصاً وافيـاً للكتـاب الـذي اصـدره « هاميلتون غـوردان » ـ مساعـد كارتـر عن هذه القضيـة التي شغلت العالم في حينه !


CRISIS
THE LAST YEAR OF THE
CARTER PRESIDENCY
HAMILTON JORDA







الكتاب : الأزمة ـ السنة الأخيرة في رياسة كارتر ثم المؤلف والرئيس كارتر .



هكذا كان ينام الرئيس كارتر اثناء الأزمة

الساعات الأخيرة

من ازمة الرهائن الأمريكيين في طهران !

ازمة السنة الأخيرة في رئاسة كارتر كانت موضوع كتاب أصدره « هاميلتون غوردون » ـ ٣٦ ـ سنة . مساعد الرئيس جيمي كارتر منذ عام ١٩٦٦ ، والمسؤول الأول عن تنظيم حملته الانتخابية لعله يفوز بالرئاسة مرة أخرى .

ولكي يتمكن المؤلف من اصدار كتابه عن الفترة التي زلزلت امريكا وهددت العالم بالحرب الشاملة . . اعتمد على مصادر كثيرة . . . فقد كان يكتب مذكراته أولاً بأول . . تماماً مثل رئيسه ، وكانت مذكراته تستمد مادتها من تقارير الخارجية والمخابرات ومن المناقشات في مكتب الرئيس ، وفي الطريق إليه . . وفي اللقاءات السرية بالشاه، ومن المعلومات الرسمية التي تصل عن الخميني ، وقد سجل غوردان النكات ، التي كانت تفرقع في كل الإتجاهات ، كما استند إلى الوثائق الرسمية الخاصة بالرئيس . . والى الأشرطة المسجلة والمودعة الآن في مركز الوثائق الإتحادية .

واعتمد ايضاً على مذكرات سكرتيرته الخاصة التي احتفظت هي الأخرى بعدد هائل من الأشرطة المسجلة ، ومن المذكرات عن الحوادث اليومية واللقاءات في حينها مع الرئيس كارتر ، ومع كل سكرتارية الرئيس ، وقد كانت السكرتيرة تضمن تعليقاتها الخاصة : رأيها وانطباعاتها .

كما ان المؤلف قام بلقاء عدد كبير من الشخصيات ، واستوضح منهم أموراً كثيرة ، وسافر إلى القارات الخمس يسأل عن أشياء حدثت وفي حاجة إلى توضيح ليكمل بها الصورة التي لديه ، أو يكمل بها نسيج الأحداث في البيت الأبيض .

وقد أبدى غوردان اهتماماً خاصاً بالحديث مع طبيب الشاه ، وهو طبيب فرنسي عايش الشاه ست سنوات ، وكان يسافر إليه سراً ، وعرف من الطبيب أثر السياسة في الطب ، وأثر الحالة الصحية في اتخاذ القرار ، وطال لقاؤه بالسفير الأمريكي في إيران ، وكان للسفير رأي خاص في الشاه والثورة عليه ، وهو غير ما تؤمن به الإدارة الأمريكية وأجهزة المخابرات . . . .

وقد رفض أصدقاء الشاه وجميع أفراد أسرته أن يقابلوا المؤلف ، أو يجيبوا عن أي تساؤل له .

والتقى بجميع الذين عاشوا مع الشاه في منفاه في بناما ، فتحدث الى الخدم والطهاة والحراس .

ثم قرأ المؤلف بامعان مذكرات الشاه (رد على التاريخ) ، وقرأ مذكرات أخته وتوأمه الاميرة أشرف (وجوه في مرآة) ، والكتابان يؤكدان معنى واحداً : (ان الرئيس كارتر هو وحده المسؤول عن الثورة في ايران) ـ أي عن إسقاط الشاه .

والشاه نفسه لا ينفي هذا الرأي بل أكد في مذكراته ان الأمريكان هم الذين أسقطوه ، مع أن أحداً لم يحالف الأمريكان كما حالفهم الشاه ٣٧ عاماً ـ ثم ماذا كانت النتيجة لقد تآمروا عليه مع الثوار ! .

تبدأ مذكرات هاميلتون باخر لحظات عهد الرئيس كارتر فلم تبق امامه الا دقائق ، وبعدها يكون رئيساً سابقاً ، وكان غوردان يضع عدداً من التلفونات على أذنيه ، واحد يتصل بالرئيس ، والآخر يتصل بأحد رجال المخابرات في مطار طهران ، مندوب المخابرات قال له :

ان طائرتين جزائريتين ستقلان الرهائن تقفان عند نهاية الممر في مطار

طهران .

وكان غوردان يحلم بأن يبعث بورقة يقول فيها للرئيس كارتر :

لقد تم الإفراج عن الرهائن .

وهنا يتقدم كارتر من القاضي الذي سوف يحّلف « رونالد ريغان » اليمين أمامه قائلاً :

لحظة واحدة يا سيادة المحافظ ريغان ، فعندي خبر هام ، لقد تحرر الرهائن !

ولكنها كانت فكرة عابرة . . . فقد كان أمل الجميع أن تجيء اللحظة الأخيرة هي أسعد اللحظات منذ ٤٤٤ يوماً ، حين امسكوا بـ ٥٢ رهينة في السفارة الأمريكية بطهران .

طلب كارتر من امناء سره ايجاد كلمة اخرى غير (الطلبة) الذين اعتقلوا الرهائن . . كأن يقولوا :

ـ الإرهابيون . . او المجانين . . او المهاويس . . او المرتزقة . .

وكانت المشكلة الكبرى إلى جانب الرهائن أن يبحث الرئيس كارتر عن (مأوى) لشاه إيران الذي خرج من بلاده ، وتوقف في مصر ، ثم ذهب إلى المغرب ليقال له انه شخص غير مرغوب فيه ، وكانت المشكلة :

هل يقيم الشاه في الولايات المتحدة الامريكية ؟

لقد عارض كارتر منذ البداية ان يلجأ الى امريكا ، لأن هذا اللجوء سوف يجعل الموقف صعباً ، وقد يؤدي الى قتل الرهائن والى تهديد مصالح امريكا في الخليج . . ولكن رفض استضافة الشاه في امريكا سوف يفضح امريكا امام العالم ، فيتساءل الناس :

ـ انظروا ما الذي تفعله امريكا باقدم حليف لها في الشرق الأوسط ؟

ويقول المؤلف :

لقد حاول صديقان للشاه هما (روكفلر وكيسنجر) أن يجدا له مكاناً

في الولايات المتحدة .

وكان رأي « بريجنسكي » مستشار الأمن القومي أن يجيء الشاه إلى امريكا ، وأن يبقى بعض الوقت إلى ان تتضح الظروف في إيران ، وإلّا بدت امريكا دولة انتهازية . . صديقة للشاه إذا كان على العرش وعدوة له إذا سقط .

ويستعرض المؤلف الأيام الحزينة في حياة الشاه السابق فيقول :

كان من رأي الرئيس كارتر : انه ما دام هناك مكان آخر يستطيع أن يعيش فيه الشاه ، فلماذا امريكا بالذات ؟ لأن امريكا تريد ان تجد سبيلاً إلى مداراة الخميني وأن تحسن علاقتها به ، وإذا كان لا بد ان تختار بين الشاه ومصالح امريكا ، فمن المؤكد انها سوف تختار ما ينفعها .

وقرر الرئيس كارتر ان يوفد مبعوثاً الى شاه إيران عندما استقر بعض الوقت في المكسيك ويعرض عليه حساسية الموقف ، والتعليمات لدى المبعوث الّا يرفض لجوء الشاه الى امريكا ، وانما فقط ان ينبهه بقوة الى صعوبة ان يتقدم بمثل هذا الطلب .

واختار كارتر صديقي الشاه (روكفلر وكيسنجر) ليقوما بهذه المهمة ، ورفض الاثنان ان يقوما بشيء لا يقتنعان به ، وبعث الرئيس كارتر برجل من المخابرات كان قد عاش طويلاً في ايران ، وكان رد الشاه :

ـ وأنا لا أحبّ ان أذهب الى أي مكان لا القى فيه ترحيباً .

وبدأت مأساة شاه ايران منذ الساعات الاولى لمقامه في المغرب . .

وأقام الشاه في جزر بهاماس بمساعدة كيسنجر ، ثم انتقل بتأشيرة سياحية الى المكسيك . وساءت صحة الشاه فهو يعاني من السرطان سرا منذ ست سنوات وقد تأثر وزير الخارجية « سيروس فانس » لحالة الشاه وحاول اقناع الرئيس بدعوته الى امريكا للعلاج ، ولكن الرئيس كارتر رفض تماماً اجراء يؤدي الى تهديد المصالح الامريكية .

قال غوردان للرئيس :

هل تدري يا سيادة الرئيس ما الذي سوف يقوله كيسنجر اذا مات الشاه ؟ سيقول انك اسقطته ثم قتلته . .

وقال الرئيس :

الى حيث القت ولعنة على ما سيقولـه كيسنجر لا تنسَ انني رئيس هـذا البلد .

وطلب كارتر من السفارة الامريكية في طهران ان تكتب له تقريـراً عن رد الفعل في ايران اذا اقام الشاه في امريكا .

وفي ذلك الوقت احتل الطلبة السفارة الامريكية وبها ٥٢ رهينة يوم الرابع من تشرين الثاني ١٩٧٩ .

وكـان من عادة الـرئيس كارتـر أن يفكر أو يستـريح من التفكيـر أيضاً أن يقلب في الكرة الأرضية الضخمة في مكتبه ، وكان كارتر يقول :

انني انـظر إلى الكـرة الأرضيـة لأعـرف مـواقـع الـدول ومشـاكلهـا مـع جيـرانها ومصـادر الحياة فيهـا . . . وأضع نفسي مكـان كـل حكـامنهـا ، لكي أكون منصفاً عند تقدير مواقفهم معنا أو ضدنا . .

وإلى جـوار مكتب الرئيس كـانت توجـد حقيبة كبيـرة قديمـة بهـا ديـوان شعـر (ديلان تـوماس) وقصـة حيـاة رؤسـاء امـريكـا الـذين يحبهم ، وهم : جيفرسون ولنكولون وترومان ، وقصة حياة ميناحيم بيغن .

وكـانت الـظروف الـدوليـة (كمـا يقـول المؤلف) تسـاعـد على الضيق القـومي : فبعـد أزمـة فيتنـام جـاءت أسعـار البتـرول التي رفعتهـا الأوبيـك ، وأخيراً الرهائن الأمريكان و . . الشاه . وكـل ذلك يثيـر اهتمام النـاس . . هذا شيء مهم : ان يشغـل النـاس بشيء . . ولكن العيب هـو أن ينشغلوا بـذلـك كثيراً جداً .

ولم يعرف الرئيس كارتر كم من الـوقت سوف تستغـرق أزمة الـرهائن ، انها تشبه أزمة السفينة بيبلو مع كوريا الجنوبيـة ، وقد استغـرقت عامـاً في عهد جونسون . . ومثل فضيحة ووترغيت التي أودت بالرئيس نيكسون .

على هذا النحو يصف المؤلف تلك الساعات الحرجة من حياة كارتر ، ثم ينتقل الى اثر كل ذلك على الشاه فيقول :

ضاقت الدنيا كلها في وجه الشاه ، فقد بعثت امريكا لكل سفرائها في العالم للبحث عن مأوى للشاه ، فكان الرد سلبياً باستثناء مصر .

جلس غوردان يكتب تقريراً عن الموقف ، وسجل الأسباب التي تجعل صديقة (عمر توريخوس) رئيس بناما يرفض استقبال الشاه ، الأسباب الأولى انه يريد مساعدة امريكا ، وأنه يريد أن تتحسن العلاقة بين البلدين بعد ذلك اقتصادياً وسياسياً ، وأن مثل هذا الحدث العالمي سوف يجعل توريخوس حديث الدنيا كلها ، وهو يحب ذلك ، ثم ان تقاليد بناما ترحب بإيواء اللاجئين والهاربين . . فقد استضاف توريخوس شخصياً الإرهابية الأمريكية المليونيرة (بات هيرست) عندما تزوجت .

بعد أن قابل غوردان رئيس بناما كتب الى رئيسه يقول :

إن الأسباب التي تجعل توريخوس يتردد في استضافة الشاه أن هناك دولاً كثيرة تضع علم بناما على سفنها ، وسوف يؤدي إيواء الشاه إلى إحراج هذه الدول ، وأن استضافة الشاه سوف تخلق له مشاكل سياسية في أمريكا اللاتينية ، وهو يحاول تحسين علاقاته مع الشيوعيين ، وسوف يقولون انه عميل امريكي ، وسوف تقوم المظاهرات في البلاد ضده ، وضد امريكا ، وكذلك صورته في العالم الثالث سوف تتأثر ، فهو رجل غير منحاز ، وعلى علاقة جيدة بكاسترو وكارتر معاً ، وأخيراً ربما كان في إيران عدد من ابناء بناما ، ومن المؤكد ان حكام طهران سوف يجعلونهم رهائن ايضاً . !

وذهب غوردان للقاء توريخوس من جديد ، وأخبره أن كل الدول الاوروبية التي اختارها الشاه قد تنصلت منه مثل النمسا وسويسرا وإيطاليا وبريطانيا ، ولم تقبله إلا مصر ، والرئيس كارتر يعترض على ذهابه إلى مصر

خوفاً من خلق مشاكل للرئيس السادات ، ووافق توريخوس على استضافة الشاه . .

وكان لا بد أن يذهب غوردان للقاء الشاه ، واتصل بالرئيس يقول له :

بل أريد من هو أكبر سناً مني حتى لا يشعر الشاه بأن امريكا قد أهانته حين بعثت إليه شاباً صغيراً . .

في ذلك الوقت نقل الخميني إلى أحد المستشفيات ، وانزعج الرئيس كارتر لهذا الحادث ، وخشي ان يموت الخميني فتقوم حرب على السلطة فلا تعرف أمريكا من الذي يمكن أن تتصل به وتبني معه علاقات جديدة.

ولم يكن الشاه يعرف شيئاً عن بناما ولا عن الجنرال توريخوس ، ولكنه ذهب إلى بناما في حراسة مشددة ، وبدأت المشاكل، فالشاه يريد إجراء عملية جراحية ، والطبيب الذي وقع عليه الإختيار هو الدكتور بيكي ، وقد أحس الأطباء في بناما بالإهانة لإختيار طبيب من خارج البلاد ، وفي نفس الوقت لم يسترح الشاه إلى الإقامة في بناما ، وقد تسلط عليه شعور بأن من الممكن رشوة الحراس فيقومون بتسليم الشاه إلى الخميني .

وقد قال الرئيس كارتر لغوردان :

اذهب إلى الشاه وقل له ان الرئيس يؤكد له انهم إذا خطفوه وأعادوه إلى إيران فسوف يصدر أمراً باسقاط طائرة الشاه !

وضحك كارتر . . فهو لم يكن يقصد ذلك بل لعله تمنى ان يخطفوه وان يعيدوه إلى إيران .

ولم يشعر الشاه بارتياح منذ اللحظة الأولى لنزوله أرض بناما ، فالجنرال توريخوس لم يملأ عينيه ولا رأسه ولا قلبة بالأمان . . فقد رأى في عينيه بوادر السخرية . . بل كل السخرية .

وفي ذلك قال توريخوس :

ياه . . انتهت اسرة بهلوي بعد ٢٥ قرناً إلى ٢٥ شخصاً وكلبين .

وسافر الشاه إلى مصر ، واتجه مباشرة الى مستشفى المعادي بعد استقبال رسمي ضخم ، فكان هذا الموقف المصري حديث العالم .

وفي نفس الوقت كان الرئيس مشغولاً بالإنتخابات ، وطلب إلى هاميلتون غوردان أن يتولى الحملة الإنتخابية ، وكتب غوردان للرئيس ما تجمع لديه من معلومات عن خصمه المحافظ رونالد ريغان . قال :

ان الناس عادة يقللون من شأن هذا الرجل ، إنه ليس مفكراً من الدرجة الأولى ولكنه شرس وعنيد ، وهذا ما يعجب الناس فيه ، وله فلسفة تقليدية قوية ، ولذلك فأفكاره واضحة والذين يعملون معه يحبونه جداً . . وهو لا يعمل كثيراً ، إنه يعمل على راحته ، بلا ضغط على نفسه أو على غيره . اصدقاؤه السياسيون قليلون جداً ، وهو عصبي ولكن لديه مقدرة عجيبة على إخفاء ذلك عن عيون الناس . . انه يصدر قراراته بعد ان يتشاور ، وله عدد كبير من المستشارين . . إنه رجل اجتماعي جداً . . وهو أول من يهنىء وأول من يواسي .

ويقول المؤلف :

وكان على الرئيس جيمي كارتر ان يواجه فضيحة أخيه بيلي كارتر الذي تقاضى اموالاً من ليبيا . وعاب الناس على الرئيس انه لم (يؤدب أخاه) ، وكان رد الرئيس انه لا يملك ذلك ، ففي أمريكا قانون وقضاة ، ثم انه لو حاول ان (يؤدب) أخاه لأدى ذلك إلى عناده وإلى مبالغته في سلوكه المنحرف .

وتوفي شاه إيران يوم ٢٧ تموز ١٩٨٠ ، وحاول الرئيس كارتر ورجاله استغلال هذا الموقف في الإفراج عن الرهائن .

وكان تعليق كارتر على الوفاة :

ـ هذا الرجل فقد عرشه وبلده وأخيراً حياته . . وقد تحمل الكثير من المصاعب من أجل الإبقاء على سلطته سنوات طويلة ، ولكنه لم يلجأ إلى

استخـدام الجيش ليبقى على عرشـه ، والخميني يلومني لأنني أبقيت الشاه ، والشاه يلومني لأنني اسقطته عن العرش .

ثم ضحك كارتر ليقول :

ـ من أجل هذا كله ظهر الرؤساء في التاريخ .

(. . . إن امـريكـا . . صـاحبـة التكنـولـوجيـا المتقـدمـة . . صـاحبـة الصواريخ المـوجهة عـابرة القـارات . . صاحبـة ترسـانة السـلاح القادرة على تدمير العالم ، وإبادة البشـر . . امريكـا هذه ، وقفت عـاجزة عن تنفيـذ عملية عسكرية محدودة . . . بسبب خطأ فني بسيط ـ تمثـل في عطب أصـاب طائـرة هليكوبتر ـ وفشلت العملية رغم الملايين تنفقها على التسليح والمخابرات .

ومـا حدث مـع أمريكـا . . يمكن أن يحدث مـع غيـرهـا ، فـالحـروب والأسلحة لا تنهي المشاكل . . إنما تزيد المشاكل تعقيداً) . !

هـذه العبارات قـالهـا (هـاملتـون غـوردان) الـذي روى في مـذكـراتـه أصعب الأيـام التي قضاهـا كـارتـر في البيت الأبيض ، ومنهـا أيـام أزمـة الرهائن !

يقول مؤلف كتاب (الأزمة) :

قبـل منتصف نيسـان ١٩٨٠ ، وأثنـاء غـداء عمـل محـدود في البيت الأبيض ، قال الرئيس الأمريكي كارتر لمساعديه :

ـ لقد فكرت طـويلاً في هؤلاء الـرجال المحتجـزين في طهران . . وفي تصـوري أن تنفيذ العمليـة الخاصـة بتحـريـر الـرهـائن هي الإختيـار الأفضـل أمـامنا ، إنني لن أتخـذ قراراً الآن ، ولكني سـأفكر خـلال عطلة الأسبـوع في الأمر ، وسأخطركم بقراري . .

وأيد بريجنسكي مستشـار الأمن القومي الفكـرة بشدة ، وكـان (سيروس فانس) وزير الخارجية غائباً عن الإجتماع .

كانت فكرة إنقاذ الرهائن ، عن طريق عمل عسكري محدود ، قد نشأت في أعقاب الإستيلاء على السفارة ، وتم اختيار مجموعة عسكرية خاصة تدربت على مقاومة الإرهاب ، وأطلق عليها اسم (مجموعة دلتا) لتنفيذ المهمة .

ووضعت المجموعة في حالة تأهب واستعداد ، وأجريت سلسلة طويلة من التدريبات المختلفة المتواصلة لكيفية اقتحام السفارة الأمريكية في طهران وإنقاذ الرهائن .

وكان من المتفق عليه ، أن تقوم طائرات النقل ، بنقل افراد المجموعة إلى منطقة صحراوية معينة في إيران ، ومن هناك يستقل افراد المجموعة ثماني طائرات هليكوبتر ، إلى منطقة جبلية معينة ، ومن هناك يستقلون سيارات نقل تم اعدادها بواسطة المخابرات الأمريكية إلى مخزن معين في ضواحي طهران ، وفي الليل يتسلل أفراد المجموعة من المخزن قاصدين مبنى السفارة الأمريكية ، وبعد اقتحامه وتحرير الرهائن يستقلون سيارات النقل التي ستكون في انتظارهم لتنقلهم إلى الأستاد ، حيثما تنتظرهم هناك طائرات الهليكوبتر ، وتعود بهم إلى الصحراء ، ليستقلوا الطائرات ، عائدين بالفوز الكبير .

وكانت مهمة الإنقاذ تواجه صعوبتين أساسيتين :

الأولى هي الوصول إلى الصحراء الإيرانية سراً دون أن تحس بها الرادارات الإيرانية . .

والثانية هي احتمال تعطل طائرات الهليكوبتر ، وعدم قدرتها على الإستمرار في هذه المهمة الطويلة الشاقة .

وكان هناك احتمال يتمثل في تعطل طائرتي الهليكوبتر ، لذلك اتفق على استخدام ثماني طائرات في العملية ، وبذلك يبقى منها ست على الأقل في حالة وقوع العطل .

كانت المهمة أشبه بالعمليات التي يراها الإنسان على شاشة السينما ، ولكن القيادة الأمريكية كانت واثقة من نجاحها .

في منتصف نيسان . . دعا كارتر مساعديه إلى غداء عمل طارىء . . . ودخل ومعه وزير الخارجية (سيروس فانس) .

وقال كارتر اثناء الغذاء :

- ان فانس قلق بشأن العملية ، وله رأي معين فيها ، أرجو أن تسمعوه .

وبدأ فانس يتكلم ، قال :

ان مشكلة الرهائن سببت لنا القلق والإحباط في وزارة الخارجية ، وقد أصبنا بخيبة أمل كبيرة . . وبعد أن كانت هناك بارقة أمل للإتفاق مع طهران - رغم صعوبة الموقف - ورغم عجز الحكومة الإيرانية عن اتخاذ القرار ، فانني لا أرى أن نستسلم لليأس ، ولا بد أن نبحث عن وسائل جديدة للتفاوض ، ومن هنا تجيء معارضتي الشديدة لعملية الإنقاذ .

قال فانس الجملة الأخيرة بحزم ، وراح يتطلع في وجوه الحاضرين . . ثم استطرد قائلاً :

بالرغم من انني لم أستمع إلى كل التفاصيل الخاصة بهذه العملية فانني أشك في نجاحها .

المفروض أن ندخل إيران دون أن يحسّ بنا أحد . . . . ان نصل إلى السفارة . . نتسلق أسوارها . . . نقتحمها . . . ننقذ الرهائن ، ونعود بهم . . . ولا أتصور ان هذا يمكن تحقيقه دون الحاق الأذى بأفراد المجموعة أو ببعض الرهائن .

ودعونا نفترض ، ان كل شيء سيتحقق ، ويمضي على ما يرام ، وأن الجميع سيخرجون احياء . فإذا حدث هذا ، ماذا يصبح مصير المواطنين الأمريكيين في إيران ؟ .

هناك مئات من الأمريكيين يعيشون في طهران ، فإذا تم اعتقالهم ، فإننا في هذه الحالة سنعود الى بداية الطريق من جديد .

وسكت فانس لحظة ، ونظر إلى كارتر قائلاً :

ـ يجب ان نضع في اعتبارنا النتائج التي يمكن ان تترتب على العملية ، سواء نجحت أو فشلت . . كيف يكون تصرف الإتحاد السوفييتي ؟

كيف يكون رد الفعل لدى الدول العربية ؟ والدول المجاورة لإيران ؟
كيف يكون رد الفعل لدى العالم الإسلامي ؟

ماذا سيكون رد الفعل لو انقذنا الأمريكيين ، وقتلنا الإيرانيين ؟ .
سنقول . إنها مهمة انقاذ . . ولكن الآخرين سيعتبرونها تدخلاً عسكرياً . .
لكل هذه الأسباب أسجل اعتراضي على المهمة ، وأعتبر ان الوقت غير مناسب لتنفيذها .

ونظر كارتر إلى الوجوه القليلة المحيطة به . . . نظر إلى نائبه مونديل ، وإلى وزير دفاعه براون ، وإلى بريجنسكي . . وإلى الآخرين وتساءل :

ـ هل هناك أي تعليق على كلام فانس ؟
ونظر فانس إلى الوجوه ، وشعر أن أحداً لا يتفق معه .

وتكلم كارتر ، قال :
ـ ان القيادة لم تكن واثقة من نجاح العملية منذ أربعة أشهر مضت ، ولكنها الآن واثقة من نجاحها تماماً . . . بالنسبة للأمريكيين في إيران ، فقد سبق أن حذرناهم ، وطالبناهم بمغادرة إيران ، ولكنهم لم يستجيبوا لنا .

وهنا اعترض فانس قائلاً :
ولكنهم امريكيون . . يا سيادة الرئيس !

ردّ كارتر :

أعرف هذا ـ وأنا أحرص عليهم ـ ولكن التزامي يتركز الآن تجاه الرهائن والذين يمثلونني ويمثلونك ، ويمثلون هذا البلد .

ومضى كارتر قائلاً :

أنا أخشى المواجهة مع الإتحاد السوفييتي ، وهذه المواجهة محتملة إذا تدخلنا عسكرياً في إيران ، إذا قمنا بغارات جوية فوق أراضيها . . . او إذا قمنا ببث الألغام حول موانيها ، ولكن القيام بعملية محدودة من أجل إنقاذ الرهائن ، يقلل من مخاطر هذه المواجهة .

أما بالنسبة لرد الفعل وسط البلاد العربية والإسلامية ، فلا اعتقد أنه سيكون عنيفاً . . . لأن الخميني لا يحظى باحترامهم ، إنما يثير كراهيتهم .

واختتم كارتر كلامه قائلاً :

لقد اتخذت قراري ، والقرار هو تنفيذ العملية . . هل هناك أي تعليق ؟

لم يعلق أحد ، بينما أحنى فانس رأسه تجاه المائدة .

ويبدأ الرئيس الأمريكي الأسبق يوجه العديد من الأسئلة الى رئيس أركان القوات الأمريكية ، واشترك الجميع في طرح التساؤلات . . . ما عدا سيروس فانس .

الإثنين ٢٤ نيسان ١٩٨٠ .

كان هذا اليوم من اسوأ الأيام في تاريخ كارتر . . هكذا يقول « غوردان »، ويضيف :

في الصباح قدم إليه سيروس فانس استقالته . . وتعمد وزير الخارجية أن يختار هذا التاريخ بالذات ، وهو التاريخ المحدد لتنفيذ العملية ، عملية الإنقاذ ، حتى إذا ما فشلت العملية لا يقال إنه هرب من السفينة وهي تغرق ، وإذا نجحت . . لا يدعي نصراً في عمل عارضه ، ويعارضه .

. . . وفي المساء تحطمت كل أحلام كارتر . . وتبددت .

في الرابعة والنصف ، استدعى معاونيه إلى مكتبه .

كان وجهه بارداً كالحجر . .

وكان يقف الى جواره بريجنسكي ، قال كارتر :

عندي أنباء سيئة . لقد اضطررت إلى الغاء العملية . !

واصيب الجميع بوجوم .

واستمر كارتر قائلاً :

لقد تخطينا الصعوبة الأولى . . . استطاعت الطائرات الوصول إلى الصحراء. الإيرانية دون أن تلحظها الرادارات الإيرانية ، ولكن طائرتين من طائرات الهيليوكوبتر الثمانية عجزتا عن الوصول إلى أرض العملية وعندما استقل (مجموعة دلتا) الطائرات الست الباقية ، أصيبت إحداها بعطب وعجزت عن الإقلاع . . وإزاء هذا النقص في طائرات الهيليوكوبتر ، والخوف من تعطل طائرات أخرى قررت الغاء العملية ، وعودة أفراد المجموعة .

وابتسم الرئيس كارتر ابتسامة باهتة وقال كما لو كان يريد خداع نفسه :

ـ على الأقل . . لا خسائر بين الأمريكيين . . ولا خسائر بين الإيرانيين الأبرياء !

ولم يكد ينطق كارتر بهذه الكلمات حتى دق جرس التلفون ، وأمسك كارتر بالسماعة ، ولم تكد تمضي لحظات حتى اغمض عينيه . . . وارتسم الألم على وجهه وفتح فمه ولم ينطق .

ومضت لحظات أشبه بالساعات الطويلة قطعها كارتر قائلاً :

ـ اثناء الإنسحاب اصطدمت طائرة هيليكوبتر بطائرة نقل، ووقع ما كنت أخشاه . . . هناك قتلى ، وهناك أيضاً جرحى !

وصمت الجميع . . ولكن بريجنسكي اكثر المتحمسين للعملية نكس رأسه . .

قطع فانس السكون قائلاً :

سيدي الرئيس . . أنا آسف . . آسف جداً .

وكان صوته صادقاً ومخلصاً .

وكان جودي باول المستشار الصحفي يتحرك في مقعده ثم قال :

ـ لا بد ان نذيع بياناً للشعب الأمريكي نقول فيه لماذا فعلنا ما فعلنا !

وهزّ كارتر رأسه موافقاً ثم نظر إلى فانس وعلى شفتيه ابتسامة باهتة ، وقال :

ربما يكون في استطاعتك ، صياغة مشروع بيان اذيعه على الشعب الأمريكي .

ولم يعترض فانس . . لم يقل . . ألم احذركم من هذه العملية ؟

إنما مضى إلى مكتب صغير وراح يعد مسودة البيان ، وربما كان هذا آخر عمل قام به كوزير خارجية امريكا قبل أن تعلن استقالته .

وكان موقفه يثير الإحترام . . .

والسطور القليلة السابقة هي خلاصة الوقائع التي ذكرها هاميلتون غوردون مساعد الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر في كتابه (الأزمة) .

قصة الزعامات الدينية في إيران !

في إيران اكثر من مائتي ألف من رجال الـدين ، يكونـون نظامـاً طبقياً لا مثيـل له في أي بلد إسـلامي في العـالم ، كـل طبقـة تحمـل لقبـاً معينـاً ، فمنهم من يحمـل لقب (حجـة الإسـلام) ومنهم من يحمـل لقب (ثـقـة الإسلام) وبضعة منهم ترقى إلى مرتبـة (آية الله) . . وواحـد فقط يصل إلى مرتبة (آية الله العظمى) .

وهذا النظام الطبقي اشترك عبـر التاريـخ الحديث في كثيـر من المعارك الدامية ولعل أهم هذه المعـارك وأبرزهـا هي التي وقعت في السنوات الأخيـرة من القـرن المـاضي ، حين أنقضَّ طـالب شـاب معمـم على (الـشـاه ناصر الدين) وطعنه بالسكين فأرداه قتيلاً بينما الشاب يصيح :

(خذها من يد جمال الدين الأفغاني) !

بهـذا صاح الشـاب وهو يقتـل الشـاه بـاسم (جمـال الـدين الأفغـاني) فـالأفغاني هـو الذي حـرّك هذه الـزعامـات الدينيـة وهـو في منفـاه في مـدينـة (الآستانة) ـ استنبـول ـ وكان هـذا الشاب الإيـراني واحداً من جمـوع الشباب الـذين كانـوا يتـرددون على جمـال الـدين ، ويلتفّـون حـولـه ويستمعـون إلى كلماته العنيفة ، ويتغذون بآرائه الثائرة .

تبدأ القصة المثيرة عندما نفي جمال الدين الأفغاني من مصر ، بعد أن أمضى فيها سبع سنوات ، ينشر آراءه الإصلاحية في التنديد بالنظم والأوضاع القائمة في مصر وفي العالم الإسلامي ، ويدعو إلى إحياء نظام الحكم الإسلامي القائم أساساً على الشورى ، ويجمع حوله عدداً من التلاميذ والمريدين ، كان من بينهم هؤلاء الذين أقاموا الثورة العرابية يريدون بها تخليص مصر من استبداد الخديوي ، وسيطرة الأتراك والجراكسة وعبث الدائنين الطامعين من دول أوربا . وإقامة (حكم الشورى) . . . وقرر الخديوي توفيق نفي الأفغاني من مصر ، وأصدر مجلس الوزراء قرار النفي (لأنه رئيس جمعية سرية من الشبان ذوي الطيش مجتمعة على فساد الدين والدنيا) . . كان هذا نص قرار مجلس الوزراء . . وأقلت الأفغاني سفينة انكليزية إلى الهند حيث أقام منفياً معتقلاً إلى ان هزمت الثورة العرابية وتم الإحتلال الإنكليزي لمصر ، وسجن ونفي زعماء الثورة الآ من آثر منهم أن يهادن ويتعايش مع الإنكليز ، بعدئذٍ سمح له الإنكليز بالسفر من الهند ، فسافر إلى فرنسا حيث أقام ثلاث سنوات ، ثم إلى إيران حيث تبدأ القصة المثيرة التي انتهت بمصرع الشاه ناصر الدين .

كان الشاه « ناصر الدين » رجلاً مستنيراً يريد أن تأخذ بلاده بأساليب الحضارة الأوربية ، وقد فتح بلاده للأوروبيين فوفدت إليها افواج من الإنكليز والألمان والروس المجاورين ، وانشأ أول بنك وأصدر أول صحيفة . . وكانت شهرة جمال الدين قد عمت العالم الإسلامي الذي بدأ يفيق على دعوته الإسلامية المستنيرة ، فدعاه الشاه ليكون مستشاره وتلقاه بالحفاوة والإجلال . . .

ولكن المحيطين بالشاه . . وهذه هي المأساة التي تتكرر دائماً عبر التاريخ . . اشفقوا على أنفسهم ومناصبهم ومنافعهم من آراء الأفغاني وتأثيرها على الشاه ، فأوقعوا بين الرجلين . . وأحسّ الأفغاني أنّ الشاه قد بدأ يعرض عنه ويتنكر له . . . فاستأذن في الرحيل ، وسافر إلى روسيا ،

وذهب الى عاصمتها بطرسبورغ (لينتغراد الآن . . أي مدينة لينين) . وسأله قيصر روسيا عما حدث بينه وبين شاه فارس ، فقال جمال الدين ان سبب الخلاف هو أنني أدعو إلى حكومة الشورى . . . لأن هذه هي حكومة الإسلام ، ولكن الشاه الذي يعتنق الإسلام ، والذي يحكم شعباً مسلماً ، لا يقبل هذا المبدأ الأساسي في شريعة الإسلام . . فقال القيصر :

كيف يرضى أي ملك بهذا الحكم الذي يجعل الفلاحين يتحكمون في مملكته ؟

قال الأفغاني :

يا جلالة القيصر ، إنه خير للملك أن يكون رعاياه أصدقاء له ، يحبّونه ويؤيّدونه . . من أن يكونوا أعداء له يكرهونه ويتربصون به الفرص . .

فلم يعجب هذا الكلام قيصر روسيا . . ونهض . . . إشارة بإنهاء الحديث والاذن بالإنصراف .

وترك الأفغاني روسيا بعد أن أمضى فيها فترة من الوقت ، معنياً بشؤون المسلمين هناك . وعددهم في ذلك الوقت يناهز ثلاثة ملايين نسمة ، أي أكثر من المسلمين في بعض البلدان العربية يومها ، وقام هناك بطبع المصحف الشريف ، وبعض الكتب الدينية للمسلمين .

سافر الأفغاني إلى باريس . . وفي الطريق نزل بمدينة (ميونيخ) في ألمانيا ، وكان الشاه ناصر الدين يزورها أو يستجم بها ، فتقابل الشاه والأفغاني مرة ثانية ، واعتذر له الشاه عما حدث ، ودعاه إلى العودة معه إلى فارس. . . ووعده بأن يمهد له الطريق إلى الإصلاح الذي ينشده . . وتردد الأفغاني . . ثم قبل وعاد إلى إيران !

وهنا تتكرر القصة مرة أخرى . . فقد دبَّت الغيرة في قلب الصدر الأعظم ، أي رئيس الوزراء ، أو رئيس الديوان ، وازدادت خشيته من جمال الدين الأفغاني الذي عاد بعد أن اعتذر له الشاه ووعده بأن يستمع إلى آرائه ونصائحه ، وقد رأى الصدر الأعظم وحاشية الشاه ان الأفغاني ومن

التف حوله من المثقفين قد اخذوا يعملون على وضع مشروعات جديدة في إصلاح الإدارة ، وفي سنّ القوانين . واخطر من هذا ان الأفغاني ومريديه راحوا يدعون إلى إقامة الحكم النيابي في البلاد ، واخذت هذه الدعوة تشتد وتمتد والشاه يظهر استعداده للمضي في طريق حكم الشورى .

وهناك ظاهرة تتكرر عبر التاريخ ، وهي أن اكثر الناس خوفاً من حكم الشورى ، أو ما نسميه بالحكم الديمقراطي ، ليسوا هم الملوك ، وإنما هم (حاشية) هؤلاء الحكام ، سواء كانت حاشية رسمية تعمل في قصورهم أو تتولى المناصب المهمة في حكوماتهم ، او تحقق المغانم والمصالح الشخصية بالإنتماء إليهم . . هؤلاء هم الذين يعارضون الحكم الديمقراطي ، أكثر مما يخشاه الملك أو القيصر ، لأن هذا يستطيع أن يبقى في ظل الشورى والديمقراطية رئيساً للدولة أو زعيماً للشعب أما تلك الحاشية وتلك الحواشي ، فإنه لا مكان لها ولسطوتها واطماعها إذا قام حكم الشورى ، وإذا ما سادت مبادىء الديمقراطية قواعد الحكم وأوضاع المجتمع .

وهكذا اخذت حاشية الشاه ناصر الدين توغر صدره على جمال الدين ، وتوقع بين الرجلين وتسلل الى عقل الشاه وقلبه عن طريق أُمّه . . التي راحت تهمس في اذنه من خطر الأفغاني ودعوته . .

وبدأ الشاه يتخوف من هذه الدعوة التي تلقى آذاناً صاغية ، وقلوباً مفتوحة . . والتي بدأت تتردد حتى في خطب المساجد ، وفي الندوات العامة ، وفي مقالات غريبة الموضوع ، قريبة الأسلوب ، تنشرها الصحف التي سمح الشاه بإصدارها .

بدأ الشاه يتخوف ، فأخذ يتجهم للأفغاني ، وتنكر لآرائه ، وبدا أنّ هناك خطراً قادماً على حركة الأفغاني . . وربما على حياته أيضاً .

خرج الأفغاني إلى مقام (عبد العظيم) أحد الأولياء ، أو أحد احفاد

الأئمة أن هذا المقام مقدساً ومن دخله كان آمناً .

اتخذ الأفغاني هذا المقام الذي يبعد عن طهران حوالي عشرين كيلومتراً مقراً له . . . . ومركزاً لدعوته وأحاديثه ، وتكوين رأي عام قوي يطالب بالإصلاح على أساس من المبادىء القويمة لشريعة الإسلام .

وأخذ مريدوه يحجون إليه في هذا المكان . . . لم يكن هؤلاء المريدون من الشباب المتطلع الى الإصلاح فحسب ، بل كان من بينهم وزراء ورجال دين وضباط من الجيش أيضاً . . كانوا يستمعون إلى خطب الأفغاني وأحاديثه ، فتمتلىء قلوبهم وعقولهم بآرائه الإصلاحية ، ويعودون إلى أماكنهم مصممين على تحقيق هذه الآراء.

وأقام الأفغاني على هذا أشهراً تزداد فيها إيران غلياناً ، ويزداد فيها مركز الشاه وحاشيته خطراً . . . بينما المنشورات تذاع في المساجد والندوات ، وبين جنود الجيش ، وهي تخيّر الشاه بين إقامة حكم الشورى والعدالة ، وبين عزله وتولية من يصلح الأمور . .

ولم يستطع الشاه وحاشيته أن يصبروا طويلاً . . فأرسلت الحكومة خمسمائة جندي مسلحين إلى الأفغاني ، وهجموا عليه غير حافلين بحرم الشيخ عبد العظيم ، ولا بمرض الأفغاني مرضاً شديداً ، ويصف الأفغاني هذه الواقعة في احدى رسائله إلى رفيقه وتلميذه الشيخ محمد عبده فيقول :

(. . سحبوني على الثلج إلى دار الحكومة بهوان وَصغَار وفضيحة لا يمكن أن يتصور دونها في الشناعة . . ثم حملتني زبانية الشاه - أي الجنود - وأنا مريض على دابة مسلسلاً ، في فصل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح والزمهرير . . وساقتني جحفلة من الفرسان . . والقوا بي قريباً من حدود العراق) . .

سافر الأفغاني الى البصرة يعاني ألم المرض وخطر الحمى التي

انتـابته . . ويغلي قلبـه بغضاً للشـاه وحاشيتـه . فآلى على نفسـه أن ينتقم من الشـاه شر انتقـام ، وألاّ تهدأ نفسـه حتى ينزلـه عن عرشـه ، وقد بـرّ بقسمه ، ونفذّ وعيده !

ان القـوة القوة الـوحيدة التي تستـطيع ان تـطيح بـالشاه هي قـوة رجـال الـدين في إيران ، ولهـذا اتّجه إليهم جمـال الدين الأفغـاني بكل مـا في قلبـه من كره للشاه ، وبكل ما في قلمه ولسانه من قوة على إثارة المشاعر .

واخذ يكتب الرسـائل إلى الـزعماء الـدينيين ويهرّبهـا إليهم من مقره في البصـرة قريبـاً من الحدود . . . واخـذ يثير عـواطفهم الدينيـة ضد الشـاه الذي فتح بلاده للأجانب وبنوكهم وشركاتهم . . . .

كان الشاه قد تعاقد مع شركة انكليـزية على احتكـار (الطبـاق) في بلد يـدخن فيه النـاس بجميع وسـائل التـدخين وبـإسراف . . وراح الأفغـاني في رسـائله يشرح لهؤلاء الـزعمـاء الـدينيين اضـرار الإحتكـار ومـا يؤدي إليـه من ارتفاع الأسعار . . . وأهـاب بهم أن يذودوا عن إيـران وشعبها هـذا الخطر . . فـاستمعوا إليـه لأنه يمسّ حياتهم اليـومية ، وراحـوا يهيّجون النـاس في خطبهم في المسـاجد والنـدوات . . . وبدأت بـوادر الثورة تنتشـر في أرجاء إيـران . . فاضطر الشاه ان يتراجع ، ويفسخ العقد الذي وقعـه مع الشـركة الإنكليـزية ، وان يـدفـع لهـا تعـويضـاً قـدره نصف مليـون دولار . . وكـانت هـذه اولى الخطوات في اضعاف مركز الشاه ، تجاه قوة رجال الدين . . .

ثم قـرر الأفغاني اصـدار جريـدة ليحـارب بهـا الشـاه ، ولم يستـطع ان يصدر الجريدة في العراق ، وهي يومئذ ولايـة عثمانيـة خاضعـة لسلطان تركيـا صديق شاه إيران . . فسافر إلى لندن وأصـدر جريـدة باللغـة العربيـة ، واللغة الإنكليـزية يملؤهـا بمقـالات يـوقعهـا بـاسم (السيـد الحسيني) يفضـح فيهـا حكـومة الشـاه ، وسـوء الإدارة ، وانتشـار الـرشـوة ، وتعـذيب الأهـالي . . . ويحـرض فيهـا العلمـاء على اصـدار فتـوى بتحـريم التعـاون مـع الشـاه ، فاستجاب بعضهم إلى ما اقترحه الأفغاني ، واستجـابت جموع من النـاس إلى

هـذه الفتوى . . . فـإذا بالشـاه أشبه بـطريـد وحيـد وهـو مـا زال جـالسـاً على عرشه .

قـام الأفغـاني بهـذا وهـو في لنـدن . . حيث كـرس جهـده لمحـاربـة الشـاه ، وكـان يـدعـو الى مجلســه كثيـراً من الكبـراء والنبـلاء في انكلتـرا ليحـدثهم ـ وربما بـالفرنسيـة التي تعلمها ، وربمـا عن طريق التـرجمـة ـ عمـا يفعله الشاه في إيران.، وعما يجرّه عليها من مصائب .

واستمـر الأفغاني في هجـومـه العنيف على الشـاه ، وفي تـأليب رجـال الـدين وفي إثارة المشـاعر الـدينية في إيـران . . وبدأ عـرش الشاه يهتـزّ . . . وراح يحاول أن يترضى الأفغاني .

أرسـل إليـه سفيـره في لنـدن يعــرض عليـه المــال الـوفيـر . . فـأبى الأفغاني . . وقال :

ـ لن اكفّ عن حملتي حتى ينتهي الشاه ! .

ووسّط الشاه صديقه السلطان عبد الحميد . . وكان عبـد الحميد يخشى الأفغاني ودعوته مثلما يخشاها الشاه . . . فارسل إليه يـدعوه نـزيارتـه . . فأبى ولكن رسل السلطان توالت والّحت ، واقسمت له بأنـه سيكون مـطلق الحريـة هنـاك ، يقول مـا يشاء ويتـركهـا متى أراد . . وانخـدع الأفغـاني وتـرك لنـدن وذهب إلى الأستانة !

وما أن وصل الأستانة حتى وجد نفسه (في قفص من ذهب) .

لقد أمر السلطان عبد الحميد باستقبال الأفغـاني استقبالاً حسنـاً . ورتب لـه مرتبـاً شهريـاً كبيراً ، وأنـزله في بيت قـريب من قصر يلدز ، وجعـل تحت امرته عربة وجياداً وخدماً وحشماً ، يخدمونـه ويتجسسون أيضـاً عليه وعلى من يتـرددون عليه . . طلب منـه السلطان ان يكفّ عن مهـاجمـة الشـاه . . وبعـد نقاش وحوار قال الأفغاني :

ـ من أجلك سأعفو عن الشله !

كلمة كبيرة جداً على مسمع السلطان !. رجل مهما تكن مكانته وشهرته فهو واحد من الرعايا المحكومين . . فكيف يقول في حضرته : سأصدر عفواً على الشاه ؟

ويرتاع السلطان عبد الحميد مما يسمع . . وينظر متعجباً إلى هذا الرجل الذي يلعب أمامه بحبات المسبحة . . انه لم يكن يفعل هذا متعمداً ، ولكن عندما انصرف وقال له رئيس المرافقين ، انه يخشى ان يكون السلطان قد استاء من أحد كان يلعب بمسبحته طوال الجلسة . . نظر إليه الأفغاني وقال : ان السلطان يلعب بمستقبل الملايين من الأمة . . افلا يحق لجمال الدين أن يلعب بسبحته كما يشاء ؟

ولكن المهم ان الأفغاني راح يلقي في مقابلاته المتكررة مع السلطان عبد الحميد محاضرات في حكم الشورى . . والسلطان يصغي إليه ، ويتظاهر بالموافقة على أقواله ، ويعده باتخاذ خطوات نحو الحكم النيابي ، وأنه لهذا يريد ان يوليه منصباً كبيراً في حكومته هو منصب (شيخ الإسلام) . . فأبى الأفغاني أن يتولى أي منصب قبل ان يتم تغيير نظام الحكم تغييراً جذرياً ، فيكون هناك دستوراً ، وانتخابات ، ومجلس نيابي ، وقوانين تسري على الخاصة والعامة على السواء، وبهذا ينتهي حكم الحاشية ، وحكم البنوك الاوروبية ، للسيطرة على كثيرمن أمور الدولة العثمانية في تلك الايام .

أما في إيران فان البذرة التي بذرها الافغاني هناك . . ثم أخذ يتعهدها وهو يطوف في المنفى بين لندن والأستانة ويثير المشاعر الدينية في إيران برسله ، ويمبعوثيه إلى الزعماء الدينيين ، كل هذا أوجد في إيران حركة دينية قوية ضد الشاه ناصر الدين . . .

ولكن لماذا نجح الأفغاني في الهاب المشاعر الدينية في إيران ؟ ولم ينجح في أن يلهب هذه المشاعر في مصر ، أو في تركيا أو في بلاده

الافغان ؟

الجواب على هذا السؤال الكبير يحتاج إلى دراسة شاملة، ذلك أن التنظيم الديني في إيران يختلف اختلافاً جذرياً عن أي تنظيم ديني آخر في باقي البلدان الإسلامية . . ان كل ما فعله الأفغاني هو وضع الأسس للتنظيم الديني في إيران بحيث يصبح رجال الدين المؤسسة الأقوى على مواجهة المؤسسات التي يقيمها الحكم لحمايته . . .

وانتصر رجال الدين في أول مواجهة بينهم وبين الشاه في العصر الحديث . . . ولكنه كان نصراً قصير الأجل . . فان مصرع ناصر الدين الذي حكم خمسين سنة ، وكان من أقوى رجال الأسرة المالكة حينذاك ، قد زلزل قواعد الحكم الشاهاني . . . فراح خلفاء ناصر الدين يحاولون محاولات يائسة لأنقاذ عروشهم . . فاصدروا دستوراً وأقاموا برلماناً . . وراحوا يتقربون إلى الدولتين الكبيرتين المتجاورتين . . روسيا الممتدة على الحدود . . وانكلترا التي تحكم الهند . . فأدى ذلك إلى مزيد من الحركات الدينية المعارضة التي ظلت تقوى وتشتد حتى سقط الحكم الملكي في انقلاب عسكري قام به رضا بهلوي الذي اعتمد في البداية على رجال الدين حتى وصل إلى الحكم . . ثم بطش بهم في قسوة رهيبة ، والقى بهم في غيابات السجون . .

قصة المذهب الجعفري في إيران !

لم اكن اريد إقحام هذا الكتاب في موضوع الخلافات المذهبية الإسلامية لولا ذلك الخلط العجيب الذي بدأنا نطالعه في التآليف الأجنبية عن الإسلام . .

إن معظم ما يكتب عن الإسلام اليوم في الساحة الأجنبية مستقى من الكتب التي ألفها اعداء الإسلام على مرّ العصور والأزمان . . فما هي قصة المذهب الجعفري في إيران خاصة .

الأغلبية الكبرى من أهل إيران تعتنق المذهب الجعفري الإسلامي ، وقد بدأ التشيع أول ما بدأ كمذهب إسلامي يأخذ به عدد من المسلمين ، ثم تحول على مرّ الأجيال ، وتوالي الأحداث وتراكمها ، إلى غير ذلك تماماً . .

الأغلبية الكبرى ، أو على الادقّ ٩٣ في المائة من أهل إيران الذين يبلغون ٣٩ مليون نسمة « احصاء عام ١٩٧٦ »، من الشيعة أما باقي الناس فأكثرهم أقلية سنية من الأكراد الذين لا ينظرون باطمئنان إلى إخواتهم الشيعة ، فيتكتلون عادة في حركات مناوئة . .

وهناك اقليات أخرى من (المجوس) ، ومن (البهائيين) ومن (اليهود) !

أما المجوس الذين يدينون بالديانات الفارسية التي وضعها (زرادشت) و (ماني) ، فان عددهم يقدر بثمانية آلاف إلى عشرة آلاف . . هؤلاء لا ترى لهم أثراً في طهران ، أو أية مدينة أخرى . . . على عكس ما نراه في بومباي في الهند ، فان لهم هناك وجوداً اجتماعياً ظاهراً ، ونفوذاً اقتصادياً كبيراً ، ويعرفون باسم (البارسيين) ، أي (الفارسيين)، الذين هاجروا إلى الهند من فارس عندما دخلها الإسلام . وهم يمارسون طقوس الديانة الفارسية القديمة ، فترى في شوارع بومباي الكبرى ، معابدهم التي تتقد فيها النار ليل نهار ، هذه النار التي يعبدونها .

وكذلك مقبرتهم الكبيرة التي تعد من المشاهد السياحية . .

وحين زرت الهند برفقة الراحل جمال عبد الناصر كتبت مقالاً في الجمهورية القاهرية التي كنت أراسلها بعنوان : (رأيتهم يعبدون النار ، ويلقون بجثث الموتى الى النسور) . .

أما البهائيون فانك لا تستطيع ان تتعرف إليهم في إيران الاّ إذا قال أحدهم ، علناً وجهراً ، أو سراً وهمساً ، انه بهائي ! .

وقد لقي البهائيون مقاومة كبيرة في بلاد المشرق ، وخاصة في تركيا وإيران ، فعاشت البهائية ، وعاش معتنقوها في الخفاء . . . بينما وجدوا صدراً أرحب ومرتعاً أوسع في امريكا مثلاً حين احتضنهم اليهود هناك . . . فأقاموا معابدهم ، ومنها معبد في نيويورك اشترته بلدية المدينة منذ سنوات ، وجعلته مسرحاً لفرقة رقص الباليه .

أما اليهود فيبلغ عددهم الآن ثمانين الفاً . . معظمهم من الإيرانيين الأصليين ، وبعضهم نزح من ألمانيا وبلاد اوروبا أيام حكم هتلر وغزواته . . وقد اعلنوا انهم باقون في إيران مهما حدث فيها . .

وتوجد أيضاً أقلية من المسيحيين الأرمن ، ابتعدوا بأنفسهم عن الصراعات الجارية ، مثلما ابتعد الأرمن في بقية البلدان التي أقاموا فيها عن

صراعات أهلها . .

هذه هي الأقليات التي لا تكاد تكون شيئاً معدوداً إلى جانب الأغلبية الكبرى من الشيعة . .

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الثورة الإيرانية منذ الإعداد لها في السر ، راحت تعلن عبر بيانات الخميني وأنصاره بأن الشاه يعتمد على هذه الأقليات ، وخاصة البهائيين والمجوس واليهود ، وهي تهمة لا تجد من ينفيها ، لأن الدائرة التي كانت محيطة بالشاه تكاد تكون مغلقة لا يعرف الناس عنها كثيراً ، ولهذا وجدت هذه التهمة اصغاء من الشعب ، ومع الأيام أضحت هذه التهمة ملتصقة بالشاه . . .

ومهما يكن من أمر هذه الأقليات الدينية ودورها ، فان حياة الشعب الإيراني تقوم أساساً ، وتدور دائماً ، حول المذهب الشيعي وأصوله ومبادئه . !

فما هو هذا المذهب الشيعي ، أو على وجه التحديد . . . ما هو تأثير هذه المذاهب الذي أقر في الدستور كمذهب للدولة الإيرانية الإسلامية في الاستفتاء الذي جرى في عهد الخميني .

ان المذهب الجعفري كما درسناه مذهب اسلامي ، بل ان المذهب الجعفري هو أول مذهب في الإسلام قام قبل ان تقوم المذاهب الأربعة المعروفة . . .

ويجب التفرقة هنا بين المذهب الجعفري الأساسي ، وبين ما تفرع عنه من مذاهب وفرق كثيرة .

فهذا المذهب الجعفري يمكن التقريب بينه وبين المذاهب الإسلامية الأخرى ، ومنذ أكثر من عشرين سنة قامت في سورية وفي مصر وفي لبنان جماعة من كبار العلماء بدافع الغيرة على وحدة المسلمين بحركات متواصلة للتقريب بين المذاهب الإسلامية ومن بينها المذهب الجعفري ومن هؤلاء :

العـالم العلامـة المجتهد الأكبـر السيد محسن الأمين الـذي قاد حـركـة إصـلاحيـة كبيـرة في دمشق ، كـانت لهـا اصـداؤهـا الـواسعـة في العـالم الإسـلامي ، فعقد سلسلة من المؤتمـرات المشتركـة مـع علمـاء السنة ومنهم المغفور له الشيخ عبد المحسن الأسـطواني عالم الشـام ، غايتهـا التقريب بين المـذهبين السني والجعفري، وأدت هذه المؤتمـرات والإجتماعـات بين علمـاء المـذهبين الى وضـع أسس التقـارب في دراسـات وفتـاوى مشتـركـة ، ولكن المنيـة سرعـان مـا بـدأت بـأخـذ الشيخ عبـد المحسن الأسـطواني أولا في الخمسينيات ، ثم سارعت المنية فأخذت السيد محسن الأمين ، وتعاون أهل الظلام مع أهل الفتنة وأسدلوا الستار على هذه المحاولة الكريمة . .

ولا بد لنا من الإشـارة إلى أن آراء علماء المـذاهب السنيين تختلف في بعض الأحكام بأكثر مما يختلف المـذهب السني والمذهب الجعفري ، والـذي يراجع المذهب الجعفري والمـذاهب السنية الأربـع يرى أن بعضهـا قريب من بعض ، وأن الخـلاف بينهم إنما هـو خلاف في الإجتهـاد والإستنباط ، وهـذا هـو الشرع الإسـلامي الذي أراده الله سـارياً حتى يـوم القيامـة ليكـون للدين رحابته التي تسع قضايا الناس وحاجاتهم ، وتـواجه مشـاكلهم بالحلول النـافعة في مختلف الأزمنـة والأمكنة والـظروف إلى ان تقوم السـاعـة . وبهـذا تتحقق صـلاحية الإسـلام ، واستمرار صـلاحيته ، فـاختـلاف العلمـاء اذن رحـمـة لا نقمـة ، ونعمة من الله على عبـاده . . وإنه لمن الخـطأ الكبير أن تحـول هـذه النعمـة الكبـرى إلى مصـدر للخـلافـات ، والتعصب بحيث تشتعـل حيـاة المسلمين بـالعداوة والبغض ، ثم بـالنزال والحـرب على مـا شهـد آبـاؤنـا في مئـات السنين ، وعلى مـا نشهـد نحن الآن في الأصقـاع المختلفـة والبـلاد الإسلامية الممتدة .

ولعـل من حقي بصفتي مسلماً واكبت الأحـداث الأخيـرة أن أهمس الى آذان أهل الخير وقلوبهم ، وإلى وجدان أئمة الإسلام ليتحركوا تحركـاً إيجابيـاً يـرد إلى المسلمين وحـدتهم ، ويكشف أصـالـة الإسـلام ، وسمـوه وسـلامـة

أحكامه من كل ما يفرق صفاً ، أو يمزق جمعاً ، أو يسهم في تحويل المسلمين إلى نثير لا يجتمع ، وبلد لا يلتئم . . لقد آن لنا أن نعلن على ملأ الدنيا أن الإسلام في أصوله ، وقواعده ، وفي أحكامه ومناهجه ، وفي هدايته للعالمين ، وفي قيادته للمسلمين لا يتعرف على سنّة ، ولا على شيعة ، وإنما يتعرف على أتباعه ، ومعتنقيه ، انه وحدة ، ويخاطبهم وغيرهم بقوله الواضح الصريح : ﴿ **ان الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء** ﴾ .

قد تجرح هذه الصيحة بعض الآذان ، وقد يكون وخزها شديداً على بعض القيادات ، ولكن مبضع الجراح يشقّ موطن الداء ، لا للتعذيب ، ولكن للتطبيب ، والحق أحقّ أن يتبّع . . . . والحّق واحد لا يتعدد ، قديم لا يتجدد ، مجتمع لا يتبدد . . فعلينا ان نحني رؤوسنا وان نفتح ضمائرنا لكلمته ، وان نستجيب جميعاً لدعوته لتعود سيرتنا خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله .

وهذه الأفكار طالما دافع عنها كبار العلماء، ومنهم السادة :

الشيخ تقي الدين القمّي ، الشيخ محمود شلتوت ، الشيخ محمد المدني ، والشيخ عبد المجيد سليم ، وكان هؤلاء ومنهم من شغل منصب شيخ الأزهر الشريف يجتمعون في (دار التقريب) ويتدارسون في أمور المسلمين ، وهذه الدار ما تزال قائمة حتى الآن في القاهرة ، وتعمل في إطار التقريب بين السنة والشيعة .

وقبل هذه الحركة الإصلاحية الكبيرة كان هناك في مدينة صيدا الشيخ احمد عارف الزين مؤسس مجلة العرفان الإسلامية الذي أوقفها من أجل التقارب ، وفي عهد الامين والاسطواني والزين لم تكن نسمع لفظة الشيعة والسنة على أفواه العلماء المسلمين ، فكانوا جميعاً في صف واحد الى جانب الثورات العربية المتلاحقة ، والحركات الاصلاحية الكبرى ، والمؤتمرات الاسلامية

التي كانت تعقد في بلدان العالم الاسلامي .

وإذا كانت مجلة العرفان هي الصوت العالي في هذا الميدان فقد كانت هناك مجلة إسلامية أخرى في مصر اسمها (رسالة الإسلام) تدور حول اهداف حركة التقارب ،وقد استمرت في الصدور قرابة عشرين عاماً ، ثم توقفت عن الصدور في الخمسينات .

لقد كان الهدف الاول للقائلين بالتقارب التأكيد على أن الخلاف هامشي ، وليس اساساً ، فما هو هذا الخلاف بلغة العصر - إذا صح التعبير - ؟

الخلاف بدأ بعد استشهاد الإمام علي (كرم الله وجهه) ، وهو خلاف يتعلق بالحاكم الإسلامي .

أهل السنة تسمي الحاكم بامير المؤمنين . .

وأهل الشيعة يطلقون عليه الإمام . . ولهذا يسمى المذهب الجعفري مذهب (الإمامية) .

من الذي يحق له أن يكون إماماً ، وكيف يتولى مكان الإمامة ؟

وما هي العلاقة بين الإمام وبين المسلمين . . . أي ما هو و مدى سلطانه على المسلمين ؟

أسئلة كثيرة . . تتطلب في هذا الحيز القليل ، إجابات بسيطة . . اما من يريد ان يتعمق في الأمر فهناك كتب تشرح مبادىء

يعتقد الشيعة أن من لا إمام له فهو ضال . . وأكثر من ضال . . .

وقد قال أحد ائمتهم (أبو جعفر) :

ان من أصبح من هذه الأمة لا إمام له ، أصبح ضالاً تائهاً . . . وان

مات على هذه الحال مات ميتة كفر ونفاق . . . ويستشهد هذا الإمام بقوله تعالى :

﴿ ولكل قوم هاد ﴾ . وقال تعالى :

﴿ وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس ﴾ .

إنهم يعتقدون أن المسلمين اكرم عند الله من ان يتركهم بغير إمام عادل . . . وقد كان الأنبياء هم الأئمة ، العادلون ، فلما انتهى عهد الأنبياء برسالة محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، فلا بد أن يأتي من بعده أئمة يتولون أمر الله . . . ويكونون (حجة الله) على عباده . . وقد قال أحد ائمة الشيعة الاوائل :

(لو لم يبق في الأرض إلا رجلان ، لكان أحدهما حجة الله على الآخر . . وهذا هو الإمام) .

والإمام عند الشيعة ، ليس مجرد رجل دين متفقه ومتبحر في الدين . . بل له صلة روحية بالله سبحانه وتعالى (روح الله) قريبة الشبه بصلة الأنبياء بالله . . . وفي كتبهم أن أحد الشيعة سأل إمامه :

ما الفرق بين الرسول والإمام ؟ فكتب إليه الإمام :

(ان الفرق هو ان الرسول هو الذي ينزل عليه جبريل فيراه ويسمع كلامه وينزل عليه الوحي . . . والإمام هو الذي يسمع الكلام ولا يرى جبريل) . . .

وهذا في كلام صريح هو ان الشيعة تعتقد ان الإمام يوحى اليه . . مثلما يوحى إلى الرسول . . . والفرق بينهما في صورة الوحي . . فالرسول يراه ، والإمام يسمعه .

يقول المؤرخ الإسلامي الأستاذ احمد أمين في كتابه (ضحى الإسلام) ان الإمام في نظر الشيعة هو (ظل الله في أرضه ، ونور الله في أرضه ، والوسيلة الوحيدة لمعرفة الحق والباطل . . . والإعتقاد بذلك جزء

من الإيمان ، كالإيمان بالله ورسوله) . .

وهذه العقيدة تجعل النظرة إلى الإمام تختلف تماماً عن نظرة أهل السنة الى الخليفة . .

فالخليفة عند أهل السنة إنسان ككل الناس ، ولد كما يولد الناس ، وتعلم أو جهل كما يتعلم الناس أو كما يجهل الناس ، وليس له من مزية إلا أن كفايته وأخلاقه جعلت الناس يختارونه . وهو لا يتلقى وحياً وليست له سلطة روحية . . وعليه تنفيذ القانون الإسلامي ، وقد ينحرف عن التنفيذ فلا طاعة له على الناس ، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . . وليس له ان يشرِّع إلّا في حدود القوانين الإسلامية ، وإلّا فإن تشريعه باطل . . وإن انحرف واستطاع الناس عزله ، عزلوه . . . والمؤرخون أحرار في تشريحه كتشريح كل الناس ، ويزكونه بنفس الموازين التي توزن بها أعمال الناس . .

اما الإمام في نظر الشيعة . . فهو قائد روحي ، وله سلطة روحية كاملة . .

ويمضي الأستاذ احمد أمين في كلامه الذي أثار عليه ثائرة الشيعة في إيران . . وصدرت ثلاثة كتب على الأقل ترد على ما كتبه عن مذهبهم ، وعقيدتهم . . ويمضي فيقول :

(. . وظاهر من هذا الكلام ان عقيدة الشيعة تعطي للإمام سلطة لا حدّ لها ، فيعمل ما يشاء ، وليس لأحد ان يعترض عليه ، ولا لثائر أن يثور في وجهه ، ويدعي عليه الظلم ، لأن العدل هو ما فعله الإمام . . . والشيعة بهذا أبعد ما تكون عن الديمقراطية الصحيحة التي تجعل الحكم للشعب في مصلحة الشعب ، ويزن التصرفات بميزان العقل ، ولا تجعل الخليفة أو الإمام أو الملك الآ خادماً للشعب ، فيوم لا يخدمهم لا يستحق منصبه . .).

هذه القداسة التي أعطيت للإمام استُغِلّت في إيران ، وهنا تدخلت السياسة في المذهب .

لقد وجد أهل السياسة في إيران المذهب الشيعي قريباً من العقلية الفارسية ، وإلى نظرة الفرس إلى ملوكهم دهوراً طويلة قبل دخول الإسلام . .

وينقل الدكتور عبد الحميد متولي في كتابه (مبادىء نظام الحكم في الإسلام) رأياً لمستشرق هو (دوزي) يقول : (ان الفرس كانت لهم عقلية تنظر إلى الخلافة والملك نظرة تختلف عن نظرة العقلية العربية ، فالعقلية العربية تدين بحب الحرية ، والعقلية الفارسية تدين بالطاعة للملوك وتأخذ بمبدأ الوراثة في البيت المالك ، ولا تألف مبدأ انتخاب الخليفة ، وقد اعتاد الفرس ان ينظروا إلى الملك نظرة فيها معنى إلهي ، فنظروا هذه النظرة ذاتها الى الإمام . . وقالوا ان طاعة الإمام هي طاعة الله) . .

هذه هي سلطة الإمام . . لكن من هو الإمام . . ؟

الإمام غائب . .

فقد اختفى آخر الأئمة منذ زمن بعيد . . اختفى سنة ٣٦٠ هجرية . .

والشيعة في انتظاره منذ غاب . .

وسيعود يوماً من الأيام ، فيقيم الحق ويزهق الباطل ، ويملأ الدنيا عدلاً بعد أن امتلأت ظلماً وفساداً .

هذا الإمام الذي اختفى كان ترتيبه الثاني عشر . .

وأول الأئمة هو الإمام علي بن ابي طالب (كرم الله وجهه) ، فان الشيعة يعتقدون انه الإمام الأول ، ثم خلفه ابنه الأكبر الحسن ثم ابنه الثاني سيد الشهداء الحسين . . ثم أولاده وأحفاده وآخرهم السيد محمد العسكري ، واسمه الشائع على ألسنة الناس (محمد المهدي) . . .

و(المهدي) هذا لم يمت بنظر الشيعة حتى الآن . . . انه ما زال حياً في عقيدتهم ، وإنما حدث انه دخل وهو صبي سرداباً ببلدة (سر من رأى) أو (سامرا) بالعراق ، وغاب في ذلك السرداب . . ولكنه سيظهر في آخر

الـزمان ، ومـا دام هذا الإمـام حياً فـلا مبرر لـوجود إمـام آخـر . . ولهـذا فهم ينتظرونه ، وينتظرونه كل يوم . .

وقـد مضت الآن اكثر من ألف سنـة دون ان يخـرج الإمـام . . فهـل سيـظل منصب الإمام خـالياً حتى يعـود المهدي المنتـظر ؟ الذي ظـال انتظاره دهوراً دهمت فيها الشيعة كثير من الويلات والخطوب ؟

لا بـد أن يكـون بين الشيعـة من ينـوب عن الإمـام حتى يـظهـر الإمـام الحقيقي . . فهل ينوب عنه رئيس الدولة ؟
ام هل ينوب عنه أكبر رجال الدين ؟

ان المفهـوم المدني ، في إيـران خاصـة ، هو ان رئيس الـدولة . . أي السلطان أو الشاه يحكم الناس نيـابة عن الإمـام الغائب . . وفي دستـور إيران السابق ما يشير الى هذا . .

ولكن هـذا المفهـوم (المـدني) لا يلقى قبـولاً عنـد رجـال الـدين . . الذين يرون ، ويرى معهم عامـة الناس ، ان الـذي ينوب عن الإمـام في أثناء غيبته هو احد رجال الدين . .

وهـذا هـو في الـواقـع جـوهـر الخـلاف ومحـور الصـدام من النـاحيـة المعقائدية . . ومن الناحية الشعبية العامة . . بين الحكم (الـمدني) والـحكم (الـدينـي) في إيران . . .

ليس هـذا خلافـاً دستوريـاً . . أو خلافـاً سياسيـاً . . ولكنـه خـلاف في المعتقدات الشيعية التي توارثها الناس على مرّ الأجيـال . . فصارت جـزءاً من مشاعرهم . . ومن أفكارهم . . ومن نظرتهم إلى امور الحياة . .

فمنهم من يقبـل فكرة ان السلطان أو الشـاه ، ما دام صـالحـاً وعـادلاً ، فانه ينـوب عن الإمام . . . ولكن أغلبيـة الناس في إيـران لا يرى في السلطان أو في الشـاه ، ولا في الطريقـة التي وصل بهـا إلى الحكم ، ولا في مـظهـره وأسلوب حياته ، ما يجعله أهلاً للنيابة عن الإمام . . .

أما رجل الدين الذي عرف بالتفقه في شؤون الدين ، واشتهر بين الناس بالتمسك بقواعد الدين وشعائره ، فإنه هو الذي ينوب عن الإمام . . . وهو الذي يؤم الناس ، أو يتزعمهم ، كما نصفه بلغة العصر . . .

ومن هنا فان السلطان أو الشاه لا يجد من الناحية العقائدية البحتة تأييداً واسع النطاق مثلما يجد كبار الزعماء الدينيين الذين ترقوا في الدرجات الدينية حتى حملوا لقب (آية الله) أو (آية الله العظمى) .

وكلما ابتعد السلطان أو الشاه عن مظاهر الدين ، قلّ عدد مؤيديه وأنصاره في المحيط الشيعي الواسع ، واشتد التيار الديني واتجه نحو تقديس رجال الدين وتقليدهم تقاليد الزعامة . .

وهذا ما جرى ويجري الآن في إيران حيث يمكن ان يقال ، بعد اقرار الدستور ، ان أساس المشكلة ، شعبياً ودينياً ، نابع من العقيدة الشيعية التي تعتنقها الأغلبية الساحقة من أهل إيران . .

لقد حسم اقرار الدستور على النحو الذي اقر فيه الخلاف في إيران ، وانتصرت السلطة الدينية على السلطة الدنيوية . .

ولكن هل بامكان السلطة الدينية ، والإيرانية خاصة ، أن تعالج المصالح والمشاكل التي تواجه السلطة المدنية ؟

هذه هي المسألة ؟

ان المشكلة ليست فيما نراه ونسمعه من اخبار ايران المثيرة ، بل في قدرة رجال الدين الإيرانيين، الذين يحكمون إيران بموجب الدستور الذي اقر على مواجهة مشاكل العصر بالأسلوب الذي يتفق مع حاجة الناس ؟ .

ان الثورة مرحلة مؤقتة ، ولا بد ان يتعب الناس من البقاء في الشوارع ، وعندها سيلتفت الناس إلى رجال الدين وتبدأ ساحة الحساب . . ويا لها من ساعة ! ! .



الشاه رضا بهلوي

اجبر الحلفاء الشاه رضا بهلوي على التنازل عن العرش بسبب مواقفه ضدهم واتهامه بالتشيع للألمان . وقد احتفل في طهران بتشييع جنازته اثر السماح للنعش بالعودة إلى الوطن .

المجتمع الإيراني في ظل الشاه !

أكثر من نصف سكان إيران لم يبلغوا بعد سن العشرين . !

فقد كشف احصاء رسمي نشر عام ١٩٧٦ان ٥٣ ٪ من جميع الإيرانيين لم يبلغوا العشرين ، وان ٤٥ ٪ من السكان دون سن السادسة عشرة !

وهؤلاء الشبان هم الذين كانت جميع القوى السياسية تسعى لضمهم الى صفها في الحقبة الأخيرة وسط الصراع حول الدفاع عن الملكية البهلوية المطلقة أو الملكية الدستورية أو الجمهورية الإسلامية ! .

ايران تحمل في أحشائها مشكلات مزمنة .

مشكلة الأكراد ، وأقليم آذربيجان ، وقضية (بلوشستان) وواقع (عربستان) ، وأصحاب هذه المشكلات هم ابناء القوميات المختلفة الذين شكلوا لأنفسهم منظمات أو أحزاباً ، وحشدوا أنفسهم طوال حكم الشاه في معسكر المعارضة . .

إلى جانب هؤلاء كان إيرانيون يرفعون لافتة (الجبهة الوطنية) ويسترجعون ذكريات الأيام المجيدة من عامي ١٩٥١ و١٩٥٢ ، وقرار تأميم البترول الذي أحدث دوياً في العالم . . والجماهير التي التفت حول محمد

مصدق ويحاولون من جديد تشكيل (الجبهة الوطنية الثانية) ، ثم الجبهة الوطنية الثالثة . .

وكان آخرون يرفعون لافتة حزب « تودة » التي تصدعت مع نكسات الحزب عقب ١٩٥٣ ، غير ان بداية السبعينات تشهد ظهور جماعات اخرى تحمل إسماء (المجاهدين) و (فدائي الشعب) وغيرها . . وبعض هذه الجماعات يتخذ من الإسلام مرشداً ، والبعض الآخر يتجه نحو التطرف اليساري ، وهؤلاء هم الذين انشقوا عن آية الله الخميني ورفضوا تسليم أسلحتهم له .

ستة عشر مليوناً من بين ٣٩ مليوناً (هم مجموع سكان إيران) يعيشون في المدن . . وفي طهران وحدها اربعة ملايين ونصف مليون .

ولكن مساحة إيران (٦٢٧ الف ميل مربع) تتجاوز مساحة بريطانيا أو إيطاليا خمس مرات . . والأهم من ذلك عند الحديث عن الجغرافيا الإستراتيجية ، ان أطول حدود إيرانية هي الحدود المشتركة مع الإتحاد السوفييتي في الشمال ، والعراق في الغرب ، ولكن لإيران حدود مشتركة أيضاً مع تركيا في الشمال الغربي ، وافغانستان في الشرق ، وباكستان في الجنوب الشرقي . .

أما الحدود الجنوبية لإيران . . فهي تطل على الخليج . وخمسون في المئة من الأراضي الإيرانية عبارة عن صحراء يتركز معظمها في وسط البلاد ، والسكان المستقرون يعيشون في حوالي ١٥ ٪ من مجموع أراضي إيران . . وتتركز الكثافة السكانية في الأطراف الغربية والجنوبية والشمالية من البلاد . . وإذا كان عدد السكان قد ارتفع من حوالي عشرة ملايين في عام ١٩٠٠ الى حوالي (٣٥) مليوناً في عام ١٩٧٨ ، فان ذلك يعني ان إيران تضم أكبر عدد من السكان في دولة بترولية في الشرق الأوسط .

ورغم العائدات البترولية الضخمة فان متوسط عمر المواطن الإيراني لا يتجاوز خمسين سنة ، أي أقل من متوسط عمر المواطن في الهند التي

اشتهرت بفقر سكانها ومشكلاتهم المتفاقمة ، كما ان نسبة الوفيات بين الأطفال الإيرانيين (١٣٩ لكل ألف) هي نفس نسبة الهند .

ورغم التوسع في نظام التعليم فان نسبة الأمية تصل الى حوالي (٧٠ ٪) في إيران ، وهذه النسبة أعلى بكثير في الريف . . وفي عام ١٩٧٧ بلغ عدد الطلاب الجامعيين (١٧٠) الفا ، والمعتقد ان عدد الذين يتلقون تعليماً في الخارج (٥٥) الفاً .

ومنذ الأربعينات في هذا القرن ، حدثت تغييرات عميقة في المجتمع الإيراني .

فقد تدهورت مكانة زعماء القبائل ، وكثير من ملاك الأرض، نتيجة لإعادة توزيع الأراضي والقوة المتزايدة للدولة على مستوى القرية ، واندمج بعض زعماء القبائل وملاك الأرض في الإدارة الحكومية الجديدة ، والنظام الإقتصادي الجديد . . وانتفعوا من هذا الإندماج ، ولكن كان عليهم ان يتنازلوا عن الكثير من سلطاتهم السابقة ، ومع توزيع ملكيات كبيرة وتصفية علاقات سابقة في الريف . . زاد عدد العمال الزراعيين الذين يملكون قدراً كافياً من الأرض لأنفسهم وعائلاتهم (من ثلاثة إلى عشرة هيكتارات) ، وزاد عدد العمال الزراعيين الذين لا يملكون أرضاً ويتقاضون أجوراً . . وفي عام ١٩٧٨ كان ٢٣ ٪ من هؤلاء الذين يمارسون نشاطاً اقتصادياً في إيران ما زالوا يعملون في الزراعة .

كذلك حدث تحول في سلطة الزعماء الدينيين (العلماء) الذين فقدوا أراضيهم في الإصلاحات التي أجريت على يد السلطة ، وأصبحوا يعتمدون على (الهبات) و (العطايا) من اتباعهم . وفي نفس الوقت ، أدى توسع البنوك والمؤسسات الائتمانية للدولة والقطاع التجاري الحديث إلى الحد من سلطة (البازار) ـ السوق التجاري ـ الحديث ، رغم أنه ما زال يهيمن على ثلث الواردات وثلثي تجارة التجزئة .

وترتب على انتقال السكان من الريف إلى المدينة ، وتزايد امكانيات

تـوفـر العمـل في المـدن . . خلق طبقـة واسعـة غيـر زراعيـة تعيش على الأجور . .

وفي عـام ١٩٧٧ كان عـدد العـاملين في الصنـاعـة (٢، ٢) مليـون ، وفي الإنشـاءات مليـون شخص . . وذلـك من بين (٤، ١٠) مليـون يشكلون مجموع القوى العاملة التي تمارس نشاطاً اقتصادياً في البلاد .

وأصبحت الدولة هي القـوة المسيطرة في الإقتصـاد ، كما أصبحت رب العُمل الرئيسي . .

ففي عـام ١٩٧٧ ، كـان حـوالي ٣٥٠ الفـاً في القـوات المسلحـة و ١٦٠ ألفاً في التعليم ، و ٨٠٠ ألف في الوظائف الحكوميـة ، ومع ذلـك فان الـدولة كـانت مسؤولـة عن تـوظيف قـطاع أوسـع من السكـان في المؤسسـات الإقتصادية والمـالية التـابعة للدولـة ، ويمكن القول بـأن عشرة في المئة على الأقـل من العـاملين يعتبـرون مـوظفين حكـوميين ، كمـا ان عــدد المـوظفين الملحقين بالحكومة بصورة غير مباشرة ، او المعتمدين على خزانة الدولة في وظـائفهم اكبر من ذلـك . وتركيب الـطبقة الإيـرانية السـائدة الجـديدة يعكس هـذه التغييرات الإقتصـادية الحـديثة . . والأقسـام الثلاثـة الـرئيسيـة في هـذه الطبقة هي :

. . الفئة العليا من القوات المسلحة .

. . الإدارة المدنية . .

(ملاك الأرض ، الرأسماليون الأكثر ثراء) .

. . أصحـاب الأمـوال والمقـاولـون الـذين استفـادوا من الأزدهـار الإقتصادي الناشيء عن البترول .

ويتعاون عـدد صغيـر من العدد الكبير للممولين الإيـرانيين مع الـدولة في الصناعة والتجارة والزراعة .

وبـالنسبة للثروة فان نصيب عشـرة في المئة من السكـان في الإستهلاك يتجاوز اربعين في المئة .

وبين الطبقة الحاكمة الجديدة في عهد الشاه . والعدد المتزايد من العمال الذين يتقاضون أجوراً في المدينة والريف . . توجد فئة متوسطة جديدة يتزايد عددها . . وتشمل هذه الفئة في الريف ـ المزارعين الصغار الذين يعتمدون على أنفسهم كما تشمل ـ في المدن ـ الصفوف الأدنى من المستخدمين الذين يعملون في تجارة التوزيع الجديدة والخدمات الأخرى كما تشمل الأرستقراطية الصناعية في المصانع .

وقد ظل تركيب هذه الفئة وتوجهها السياسي سواء في إيران أو الدول الرأسمالية الأخرى النامية والمتقدمة ، ذا أهمية كبرى في حسم نتيجة الصراع بين الطبقة (المسيطرة) والطبقة التي تتقاضى الأجور .

استمرت الدولة البهلوية في العمل على تشديد سيطرتها على المجتمع الإيراني والسياسات الإيرانية منذ العشرينات من هذا القرن . . . وقد تضخمت هذه السيطرة بوجه خاص عام ١٩٦٣ .

ويقول المؤلف الأمريكي (مارفين روبيس) في كتابه (الصفوة السياسية المتحررة في إيران) الذي صدر عام ١٩٧١ ان عهد الشاه ـ باستثناء فترات محدودة ـ يمكن أن يوصف بانه ربع قرن من التوسع في سيطرة البيروقراطية المدنية والعسكرية بصورة مستمرة والتحكم في نشاط السكان على نطاق واسع في الوقت الذي قيد الشاه نفسه سيطرة الحكومة على البيروقراطية) .

ولم يسمح نظام الشاه لأي نشاط سياسي مستقل من أي نوع في إيران ، رغم انه يوجد منذ عام ١٩٥٧ نظام حزبي من الناحية الرسمية . وفي الفترة من عام ١٩٥٧ حتى عام ١٩٧٥ سمح الشاه لحزبين سياسيين بالعمل .

ـ حزب الحكومة الذي كان يسمى حزب (فيليون) ثم اتخذ لنفسه اسم حزب (نوفين) . . . وحزب (ماردوم) المعارض . ولم يكن مسموحاً

لهذين الحزبين بترشيح أعضاء للبرلمان بدون موافقة مسبقة من (السافاك) - البوليس السياسي - . . كما ان المجلس الذي كان (ينتخب) إليه هؤلاء المرشحين . . كان بلا حول ولا قوة .

ومن الناحية العملية ، لم يكن لهذين الحزبين أي مضمون ، وكانا تحت سيطرة الشاه تماماً ، وعندما حاول زعماء حزب (ماردیوم) الخروج على الإطار الرسمي لهم وتوجيه بعض الإنتقادات . . تم طردهم .

في عام ١٩٧٢ . . طرد (علي ناجي خاني) ، وفي عام ١٩٧٤ لقي خليفته (ناصر أميري) نفس المصير ، وجرى اخماد اصوات النقد .

وقرر الشاه في عام ١٩٧٥ أن يمارس سياسة أكثر نشاطاً تستهدف تجميع التأييد لنظام حكمه وتقوية الدور السياسي للدولة بطريقة إيجابية داخل المجتمع الإيراني ، ومن هنا أعلن عن تأسيس حزب جديد تحت اسم (راستاخيل) - حزب النهضة الوطنية - وتعرض جميع الإيرانيين للضغط لكي ينضموا إلى الحزب ، وفي حين ان الحزبين الحكوميين السابقين كانا بلا تنظيمات حقيقية خارج (المجلس) - البرلمان - باستثناء هياكل محددة . . فقد تقرر ان يصبح الحزب الجديد حزباً جماهيرياً ، وفي عام ١٩٧٧ ، قيل ان خمسة ملايين إيراني انضموا للحزب .

وربما كان الدافع الرئيسي وراء تأسيس حزب (راستاخيل) هو احتياج النظام الحاكم إلى وسائل اكثر نشاطاً للحصول على التأييد وإرغام المواطنين - وخاصة الذين يعملون في مصالح الدولة والمؤسسات الحكومية مثل النقابات - على الإعلان عن ولائهم على الملأ .

وكانت فلسفة الشاه في هذا المجال واضحة بما فيه الكفاية . . وقد عبر عنها في خطاب القاه يوم ٢ أيار ١٩٧٥ إذ قال :

(يجب تقوية صفوف الإيرانيين . . اننا نقسمهم الى نوعين :

هؤلاء الذين يؤمنون بالنظام الملكي والدستور وثورة السادس من باهمان (تاريخ إعلان ما سمي بالثورة البيضاء في عام١٩٦٣) وهؤلاء الذين لا يؤمنون بهذه الأشياء .

والشخص الذي لا ينضم للحزب السياسي الجديد ولا يؤمن بالشاه وحقه بالتصرف بشؤون الناس أما انه شخص ينتمي الى منظمة (غير شرعية) أو مرتبط بحزب (توده) المحظور ، أو بعبارة أخرى . . (خائن) . ومثل هذا الشخص ليس أمامه إلّا أحد طريقين ، فالمكان الذي يجب ان يوضع فيه هذا الشخص هو أحد السجون الإيرانية ، أو يستطيع إذا رغب في ذلك ، ان يغادر البلاد غداً ، حتى دون أن يدفع رسم الخروج في المطار ويستطيع ان يذهب إلى أي مكان يريد . . لأنه ليس إيرانياً . . فهو شخص لا ينتمي إلى أمة او وطن » .

الترقية والعُلاوات والأمان والإتصالات مع أصحاب النفوذ . . كل ذلك كان يتوقف على انتساب المواطن الى حزب (راستاخيل) ، ورغم انه كان مسموحاً لعناصر الطبقة الوسطى (غير السياسية) بالسفر إلى الخارج ، إلّا أنه من المعتقد ان عدة آلاف قد حرموا من استخراج جوازات سفر بعد أن حامت حولهم شبهة اتخاذ موقف سياسي معارض . .

وكانت (السافاك) ترسل الخطوط العامة لتعليمات الرقابة إلى الصحف في كل شهر . .

وفي عام ١٩٧٥ ، أتلفت الحكومة ٩٥ ٪ من المطبوعات في إيران ، كما واجهت دور النشر مصاعب مماثلة ، فإن سلطات الرقابة لم تكن تبحث مسألة التصريح بنشر الكتب الاّ بعد طبعها . . وهذا يعني ان الناشرين يجب ان يتحملوا المخاطرة بمنع تداول الكتاب في السوق بعد أن دفعوا تكاليف طبعه . . والنتيجة الطبيعية لذلك هو الإبتعاد عن نشر الكتب الذي يحتمل ، ولو بنسبة واحد في المئة ، ان يصدر قرار بمنع تداولها ، كذلك كانت

(السافاك) تمول عملية اصدار بعض المجلات .

وامتدت سيطرة الدولة إلى المنظمات والمؤسسات الأخرى . . جميع النقابات كانت تخضع لسيطرة الحكومة وتعمل على فرض السياسة التي تريدها الحكومة ، وتعتبر ان مهمتها الرئيسية هي تنظيم المساندة للنظام الحاكم .

ان درجة سيطرة الدولة السياسية في إيران تجاوزت بكثير الوضع القائم في دول رأسمالية أخرى في العالم الثالث ، تعيش في ظل أنظمة قمعية .

وقد يتساءل المرء . . لماذا كان من الضروري أن يسيطر نظام الشاه على الحياة السياسية الإيرانية . وعلى حرية التعبير الى هذا الحدّ ؟

وقد يجيب البعض بأن السبب يرجع إلى قوة المعارضة للشاه . . ولكن هذه الإجابة غير كافية . . فقد استمر القمع لفترة طويلة بعد عام ١٩٥٣ ، وعام ١٩٦٣ بعد سحق المعارضة ، وربما يكون السبب هو ضعف القاعدة التي يرتكز عليها النظام نفسه ، والعلاقة غير المستقرة بين النظام وبين الرأسمالية الإيرانية . . والتأييد الفكري الهزيل من جانب هذه الرأسمالية . .

وقد تكون الدعاية السخيفة للدولة حتى بعد مرور نصف قرن على تأسيسها هي السبب الرئيسي وراء قمع أي مناقشة أو نقد رغم عدم وجود حركة معارضة متماسكة تمثل تحدياً . !

والظاهرة التي تثير الدهشة في إيران ان الشاه كان الشخص الذي يملك سلطة تنفيذية كاملة في دولة رأسمالية تتطور بسرعة . . ومما يلفت النظر في النظام الملكي الإيراني هو انه ظل لفترة طويلة نسبياً قادراً على تدعيم مركزه مع استمرار التطور الرأسمالي . . وتكاد تكون هذه الظاهرة فريدة في نوعها في القرن العشرين .

ففي بعض دول أوروبا الغربية استمر وجود الملوك ولكن كمجرد رموز

للوحدة الوطنية كما هو الحال في هولندا ، وبريطانيا ، والسويد والدانمارك . وفي بعض الدول الرأسمالية الأخرى استمر الملوك يلعبون دوراً أكثر ايجابية ولكن في اطار المنافسة ، أو التعاون مع قوى أخرى في الدولة .

فقد تقاسم الأمبراطور الياباني هيروهيتو السلطة مع العسكريين في الثلاثينات والأربعينات ، واحتفظ ملك تايلاند بقدر من السلطة من خلال التعاون مع قواته المسلحة .

ولكن الأمر يختلف في دول كثيرة أقل تطوراً حيث قادت عملية التطور الرأسمالي الى الإطاحة عاجلاً أم اجلاً بالملوك . . فقط اطيح بهيلاسلاسي في اثيوبيا عام ١٩٧٤ بعد حوالي ستين سنة في السلطة .

وشهد هذا القرن زوال النظم الملكية في الدول المجاورة لإيران . .

في روسيا (١٩١٧) وتركيا (١٩٢٣) ومصر (١٩٥٢) وافغانستان (١٩٧٣) ، وتحولت هذه الدول الى جمهوريات . . والدول الوحيدة في العالم التي يحتفظ فيها الملوك بسلطات مماثلة لتلك التي كان يتمتع بها الشاه هي (نيبال) وبعض جزر الباسفيك وغيرها .

ما مدى أهمية أن يوجد عنصر الملكية في النظام الديكتاتوري ؟

ألم يكن في وسع محمد رضا أن يكون ديكتاتوراً ناجحاً مثلما يفعل غيره في ظل نظم جمهورية ؟

يرد الشاه نفسه على هذه التساؤلات فيقول :

(. . إذا لم يكن هناك نظام ملكي . . توجد الفوضى أو حكم الأقلية أو الديكتاتورية ، وإلى جانب ذلك ، فان النظام الملكي هو الوسيلة الوحيدة الممكنة لحكم إيران ، وإذا كنت قد استطعت أن أحقق شيئاً لإيران ، فان ذلك يرجع الى سبب قد يبدو بسيطاً . . وهو انني ملك على البلاد . . ان المرء يحتاج ـ لكي ينجز الأمور ـ الى سلطة . ولكي يستمر المرء في السلطة لا يجب على المرء ان يطلب اذناً من أحد أو مشورة أحد . . ويجب على

المرء الاّ يناقش قراراته مع أي شخص . .)

كان الشاه يعتقد ان من حقه ان يحكم إيران بهذه الطريقة ، وبذل كل ما يستطيع للإستفادة من تراث النظام الأمبراطوري وأساطيره ومن قبول الطبقات المسيطرة أن يكون ممثلاً لمصالحها .

وهكذا لم تكن الرموز الأمبراطورية مجرد شكليات بل وسائل موضوعة في خدمة إقامة نظام ملكي ديكتاتوري ، وخاصة في بداية الستينات عندما فرض الشاه سيطرة فعلية على الجماعات الأخرى في الدولة سواء الساسة المدنيون أو الجيش ، وتحول البرلمان والصحف إلى مجرد أدوات طيّعة ، وطرد الشاه أي فرد في الدولة يكتسب شعبية نتيجة لعمله . . كما حدث مع (حسن ارسانجاني) وزير الزراعة الذي تقرر عزله في عام ١٩٦٣ و(احمد نفيسي) عمدة طهران الذي فصل وسجن ايضاً في عام ١٩٦٣ ، وزعماء حزب (ماردوم) في بداية السبعينات . .

. . . وظهر الخميني

منذ أن بدأت أحداث إيران تشق طريقها الى الأسماع كان اسم « آية الله الخميني » يرافقها ، ولكن الواقع ان هذا الإسم كان يذكر كثيراً في الصحف العربية منذ اكثر من ست عشرة سنة ، أو على وجه التحديد منذ يوم الخامس من حزيران ١٩٦٣ عندما سجنه الشاه . . . ورددت الصحف اسمه في سنة ١٩٦٤ عندما نفاه الشاه من إيران .

ولكي نفهم حقيقة أبعاد الأحداث الإيرانية التي تجري اليوم ، لا بد لنا من ربط الماضي القريب بالحاضر !

لقد ذكرت الأنباء يومها ان اضطرابات خطيرة بلغت حد الثورة الشعبية قد غمرت ايران ، لأن زعيماً دينياً اسمه (آية الله الخميني) قد اعتقل ووضع في السجن ، وخرجت الصحف وفي صدر صفحاتها الأولى وبأضخم العناوين تحمل أنباء تلك الثورة في إيران ، وانتقد البعض موقف الشاه ، وتجرأ البعض الآخر فذكر ان الخطيئة الكبرى التي ارتكبها الشاه والتي ستجر عليه الويلات هي اعترافه منذ سنتين باسرائيل !

وهذا الإعتراف باسرائيل هو نفس السبب الذي أثار رجال الدين بزعامة عدد من آيات الله كان أبرزهم مكانة ، وأقواهم شكيمة وصرامة ، وهو « آية الله روح الله الخميني ».

والذين لديهم مجموعات الصحف العربية يمكنهم الإطلاع على المقال الذي نشره الأستاذ محمد النقاش تحت عنوان :

(اعتراف شاه إيران باسرائيل غلطة ، والغلطة اكبر من جريمة !) .

والواقع ان شاه إيران لم يعترف باسرائيل سنة ١٩٦٣ ، بل صدر هذا الأعتراف قبل ذلك بسنوات طويلة ففي سنة ١٩٥٠ ، عندما رأت الحكومة الإيرانية ان اسرائيل أضحت على المسرح الدولي ، وصارت عضواً في الأمم المتحدة يرتفع علمها فوق المنظمة الدولية بادر الشاه الى التفكير بالاعتراف بها !

كانت ايران قد وقفت في صف الدول العربية والدول الإسلامية تعارض قرار تقسيم فلسطين وإنشاء الدولة اليهودية في قلب الوطن العربي . .

ولكن الأمور تطورت سريعاً ، وقامت الدولة اليهودية نتيجة تآمر القوى العالمية الكبرى ، وصارت اسرائيل وكأنها ولاية امريكية ، دولة ليس لها حدود ولكن لها كيان دولي . . فاعترفت بها حكومة إيران بطلب خاص من الشاه !

ولكنه كان اعترافاً على استحياء . . فلم تقم في إيران سفارة اسرائيلية ، واكتفت ايران بأن تفتح مكتباً لها في تل ابيب يشرف عليه موظف بدرجة دبلوماسية عادية يعاونه بعض الموظفين .

اهتمت اسرائيل بالناحية التجارية ، فكان لها مكتب في طهران له صفة دبلوماسية ، وكان الظاهر منه ان نشاطه اقتصادي ينصرف إلى تقوية العلاقات الإقتصادية بين طهران وتل أبيب ، ولكن حقيقته كانت في كونه رأس الجسر الإسرائيلي للنشاط الصهيوني في القارة الآسيوية .

ثم كان المدّ العربي في السنين التالية ، فرأت إيران أن تسحب ممثليها من تل أبيب . . . وراحت تجاري الدول العربية والدول الإسلامية

الأخرى في القضايا التي تتصل بها . . بما فيها قضية فلسطين . . وكانت تصوت عادة في المؤتمرات والمحافل الدولية ، وعلى الأخص في الأمم المتحدة ، مثلما تصوت هذه الدول ضد اسرائيل . .

وفجأة ، ويدون مقدمات ، وفي شيء من السرية . . أعادت إيران ممثلها الى تل أبيب ، ووسعت مكتبها هناك ، وزادت موظفيه بشكل ملحوظ ، وصارت لها شبه سفارة في إسرائيل .

وأسرعت وكالات الأنباء بنقل الخبر . . وتلقت الدول العربية في دهشة بالغة هذه الأنباء، وبدأت في سحب سفرائها من طهران . . وقامت الصحافة العربية بدورها فشنت حملة ضارية ضد الشاه ، وقد اغتنمت الصحف اليسارية هذه الغضبة الشعبية فقادت الهجوم على الشاه ، في حين سكتت الصحف اليمينية على مضض كالعادة !

اغتنم رجال الدين في إيران هذه الفرصة الذهبية ، وكشف هؤلاء معارضتهم للشاه وحكومته بسبب هذه العلاقة الجديدة والقوية مع إسرائيل . وكان رجال الدين على رأي واحد في استنكار هذه العلاقة ، وكانت غالبية الشعب الإيراني متأثرة بما تسمعه من رجال الدين سراً وعلناً في شأن هذه العلاقة . . . وكان آية الله الخميني أقواهم فألقى خطاباً في مدينة (قم) سرعان ما تناقله الناس (لقد افتى الخميني يومها بكفر كل من يمد يده إلى إسرائيل ، وأعلن براءة الإسلام من كل من يقيم علاقة مع هذه الدولة المسخ المزروعة في الجسم الإسلامي لتطويق الإسلام الذي هو أقوى من كل أعدائه متفرقين ومجتمعين) .

وشارك كثير من الكتاب العرب في هذه الحملة ، كل بأسلوبه ، وأكدت معظم الصحف الراديكالية يومها ان العرش قد اهتزّ تحت الشاه ، وأنّ التاج اهتز من فوق رأس الشاه . . . وانه ساقط لا محالة في خلال فترة قصيرة من الزمن !

ترك شاه إيران هذه الحملة تتفاعل ضده في الصحف العربية ، وحين بدأت الحكومات العربية ، أو بعضها ، في سحب سفرائها من طهران عقد مؤتمراً صحفياً قال فيه : (. . ان الإعتراف باسرائيل كان موجوداً قبل عام ١٩٦٤ ، وانه كان اعترافاً على أساس الأمر الواقع . . فليس في الأمر جديد يستدعي تلك الضجة القائمة . . وقد كان لنا ممثل في إسرائيل ، استدعيناه بسبب رغبتنا في الإقتصاد وتوفير النفقات . . . ولم يكن معنى استدعاء ممثلنا سحب اعترافنا بإسرائيل ، وقد عاد هذا الممثل إلى إسرائيل وهو موجود هناك الآن ، ولذلك رأيت ان الوقت يستلزم معاودة اتصالنا بإسرائيل بصورة واضحة وعلنية وطبيعية) !

وأعلن الشاه في مؤتمره الصحفي قراره بأن تكون العلاقات بين إيران وإسرائيل على مستوى السفارة . وبهذا انتقلت المعركة بين بعض العواصم العربية وطهران من نطاق الحملات الإعلامية الى دائرة الحرب الدبلوماسية .

ونعود إلى ايران فنجد ان « آية الله الخميني » قد شدد الحملة على الشاه . . . واستمر في هذه الحملة على الشاه زهاء سنتين .

في هذه المرحلة كانت الصحف العربية ، بما فيها الصحف المحافظة تكتب عن رجال الدين ، وعن زعيمهم آية الله . . . وعن الإتهامات التي يوجهها للشاه وعائلته ووزرائه . . . وعن الفتوى التي أصدرها الخميني وأعلن فيها ان الشاه خارج عن الإسلام . وقد نشرت هذه الفتوى في حينه في الصحف العربية بشكل بارز ، فقد كان الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في أبّان صعوده الشعبي ، وتلقف عبد الناصر الذي دخل معركة مكشوفة مع الشاه هذه الفتوى ، وأوعز الى الصحف بالمثابرة على التعليق عليها يومياً في جميع الأجهزة الإعلامية ، وقبض على آية الله الخميني وأودع السجن . . . وعندئذ قامت اضطرابات واسعة فأسرعت الحكومة فأخمدتها بقسوة متناهية ، ولكن بعد معارك أكبر كثيراً من المعارك التي سبق لها ان دارت بين الحكومات الإيرانية المتعاقبة والمعارضة . .

لقد قتل في هذه المعارك خمسة عشر الف شخص .

وسواء أكان هذا الرقم صحيحاً أو قريباً من الصحة . . . وسواء كان هذا الرقم فيه مبالغة أو اسراف ، فان من المهم الآن أن نعرف ان الطرفين في تلك المعارك هما الزعامات الدينية من ناحية ، وجنود الشرطة والجيش من ناحية أخرى ! أما الشيوعيون الذين كانوا يسيطرون على الساحة أيام محمد مصدق فقد خرجوا من الميدان ، بعد أن بطش بهم الشاه وضربهم ضربة ساحقة . . قُتل فيها عدد كبير . . . . ولاذ عدد آخر بالفرار خارج إيران وامتلأت السجون بمن بقي من اتباع حزب « تودة » الشيوعي . . . فلم يكن لهم يد في أحداث إيران سنة ١٩٦٣ ، ولهذا رأت السلطات الإيرانية حينذاك ان تقول ان ايدي مصر وراء اضطرابات إيران ، وأن جمال عبد الناصر هو الذي يقود الحملة ضد الشاه ، وان اجهزة مخابراته هي التي تسجل خطب الخميني وتقوم بتوزيعها على أطراف العالم .

ورأت الحكومة الإيرانية ان سجن آية الله الخميني لا يكفي ! فهو ما زال يهاجم الشاه ، ويثير الناس من وراء جدران السجن .

وفي اواخر عام ١٩٦٤ خرجت الصحف العربية تقول :

(اعلنت حكومة إيران اليوم قراراً بنفي العلامة روح الله الخميني عن ايران ، والخميني هو زعيم المقاومة الشعبية ضد الشاه ، بسبب تحالف الشاه مع اسرائيل) .

وانتشرت حينذاك القصة التي تقول ان رجال البوليس السري الإيراني (السافاك) قد اعطوه حقنة مخدر ، ثم لفوه في سجادة ، ووضعوه في طائرة خرجت به من بلاده وألقت به خارج الحدود في تركيا !

وسمع الناس لأول مرة لفظة (السافاك) .

وسواء كان ملفوفاً في سجادة ، أو جالساً على مقعد في طائرة ، فقد اخرج الخميني من إيران . . وارسل الى تركيا حيث أقام بها قليلاً . . . ثم

ذهب الى العراق ، واستقر في النجف أربعة عشر عاماً . . . ثم تركها الى فرنسا ومن هناك بدأ اسمه يتداول في العالم . . . الى ان عاد على الصورة المذهلة التي قرأنا وسمعنا بها فيما بعد .

ترى هل كان موضوع الإعتراف باسرائيل هو نقطة الخلاف الظاهرة للعيان بين الشاه ورجال الدين واتباعهم ؟ لقد اتخذ رجال الدين من قرار تبادل السفراء بين إيران وإسرائيل ذريعة وسبباً لمعارضة الشاه الذي (طبق الثورة البيضاء) على (الأوقاف) الدينية مثلما طبقها على أراضي واقطاعيات رؤساء القبائل وكبار الملاك ؟

لقد عرفت إيران في تاريخها الحديث والقديم كثيراً جداً من الثورات الدامية الحمراء . . . فلما قرر الشاه إدخال (الإصلاح الزراعي) في بلاده ، اطلق على هذه الخطوة (الثورة البيضاء) . . واعتبرها الشاه ثورة اجتماعية اقتصادية وقادها بنفسه ، طبقها على نفسه فيما يتعلق ببعض املاكه الزراعية ، فتقرر الا تزيد الملكية الزراعية عما يتراوح بين ثلاثين فداناً ومائتي فدان حسب خصوبة الارض وإيرادها .

وكانت إيران حتى بداية الستينيات بلداً اقطاعياً بالمعنى الحقيقي للإقطاع ، يكاد يملك أراضيه الزراعية رؤساء القبائل والعشائر والأسر الكبيرة . . كان كل منهم يكاد يستقل بإقطاعيته ويقف حجر عثرة في سبيل الحكومة المركزية في طهران . . . وكثيراً ما نشبت بينهم وبين الشاه الكبير مناوشات ومصادمات . .

ثم جاءت موجة الإصلاح الزراعي وانتشرت في العالم من المكسيك الى كوريا الى الهند الى مصر . وقرر الشاه أن يدخل الإصلاح الزراعي الى بلاده . . وبدأت المرحلة الأولى بتوزيع مساحات من الأرض قدر أصحابها ثمنها بثلاثة عشر بليون ريال . . . ولكن ما حصلوا عليه من الزراع الصغار المبعثرين في آلاف القرى كان أقل من ثلاثة ملايين ريال .

وقاوم كبار الملاك حركة الإصلاح الزراعي ، ولكن الشاه ورئيس

و. رائه « حسن منصور » أخـذا الأمر بـالحزم والصـرامة . . وخيّـر كبار المـلاك بين بيع الأراضي للزراع وبين مصادرة أملاكهم ، ومصادرة أرواحهم أيضاً !

ونجحت الثـورة البيضاء الى حـد كبير واستقـرت . . ثم تبين بعض كبار الملاك هؤلاء ان الثورة كانت خيراً وبركة عليهم . . . فقـد حثتهم الحكومـة ، أو أمرتهم ، بأن يستثمـروا ما حصلوا عليـه من أموال في مشـروعات الصنـاعة والتجـارة التي بدأت تقـوم وتتسع بسـرعة كبيـرة . . . وسرعـان مـا نشـأت في إيران طبقة من رجـال الأعمال والتجـارة حلّت محل الـطبقة القـديمة من كبـار مـلاك الأراضي ، وقد حـدث هذا في الـدول النـاميـة المماثلة . . . . ولكنـه حدث في إيران بسرعة شديدة ، لأن عنصـر البترول دخـل في البدايـة متدفقـاً بغزارة ، حاملاً معه الثـروة الهائلة . . وحـاملاً معـه مشاكـل البترول السيـاسية والإقتصادية ايضاً !

أمـا (الأوقـاف) من الأراضي الـواسعـة التي كـان كبـار رجـال الـدين يضعون أيديهم عليها ، فقد طبقت عليهـا أيضاً (الثـورة البيضاء) . . . ضـج الكثيرون من رجال الـدين ، وأفتوا بـأن مصادرة الأمـلاك الخاصـة ، ومصادرة الأوقاف الدينية عمل ينافي مبادىء الإسلام !

وفي يـوم من الأيام خـرّ رئيس الـوزراء « حسن منصـور » صـريعـاً تحت رصاص اطلقه شاب يدعى (محمد بخارى) . . وكـان رئيس الوزراء هـذا هو رئيس الحزب الذي انشأه الشاه ، وسماه (حزب إيـران الجديـد) ، وكان من قبل يسمى (حزب الـوسط التقدمي) . . . وخـرجت الصحف يوم ٢٢ كـانون الثاني ١٩٦٥ تعلن انه وجـدت في جيب الشاب صـورة للزعيم الديني آيـة الله الخميني . .

والكتـاب الأجانب عامة والأمريكـان خاصـة ، يرجعـون ثـورة الخـميني الحـالية إلى هـذا العداء الـذي قام بين الشـاه وبين الزعـامات الـدينيـة حـول الثورة الخضـراء ، أكثـر ممـا يـرجعـونـه الى مـوضـوع العلاقـة بين إيـران وإسرائيل . !

ولكن المدافعين عن الخميني يقولون ان آخر شيء يفكر فيه الخميني هو الأمور المادية . . . . فان اتباعه يرسلون إليه سنوياً يوم كان مغترباً بين خمسة ملايين وستة ملايين من الريالات ، ينفق منها على نفسه أربعين ريالاً في الشهر ، ويعطي ابنه الذي يدرس في فرنسا ما يحصل عليه أي طالب إيراني فقير ، أما ملايين الريالات فتنفق على الدعوة والحركة التي قام بها آية الله في منفاه الطويل .

ويأخذ رجال الدين على الشاه أنه أحاط نفسه بكثير من الأجانب ، وبإيرانيين يدينون بديانة (زرادشت) القديمة (عبادة النار) ، واتباع الدين البهائي ، وأن منهم عدداً من يهود إيران . . . وان هذا قد أثر تأثيراً كبيراً في سياسته الخارجية . . ويتهمونه بأنه باع إيران للأجانب . !

وتاريخ الشاه يدل على أن هذا الإتهام فيه الكثير من الحقائق ، والكثير من المبالغة . . . فالواقع ان الشاه الذي ضرب حركة محمد مصدق التي قامت لتأميم البترول ، هو نفسه الذي تبنى ونفذ حركة الإصلاح على طريقته !

لقد قاوم حركة مصدق وانتصر عليه . . . . وذهب مصدق الى السجن . . وذهب كثير من الذين تسربوا الى الحركة من التقدميين الى المشانق أو هربوا الى المنفى . . فلما استقرت الأمور ، أخذ الشاه محمد رضا بهلوي على نفسه حل قضية البترول ، فأنهى عقد الشركة البريطانية ، واستدعى وزراءه ومستشاريه وقال لهم :

ـ الآن سيدخل الأمريكان إلى ميدان البترول الإيراني . . فلا بد أن تكون شروط الإتفاق معهم أفضل لنا من شروط الإتفاق مع أية دولة أخرى . . ولا بد أن يكون هدفنا النهائي هو أن بترول إيران يجب أن يكون ملكاً لإيران . . وكانت هذه نصيحة الأمريكان الذين أعدوا انفسهم لوراثة نفوذ الإنكليز .

ومرة أخرى هل ينجح الخميني على المدى الطويل حيث أخفق الكاشاني ومصدق ؟

الثورات الإسلامية الإيرانية التي سبقت ثورة الخميني لم تكن دعوة لإقامة نظام إسلامي في الحكم ، بل كانت حركة من أجل تأميم البترول وطرد الإنكليز الكفرة ، كما أن الثورات السابقة لم تكن ضد النظام الملكي من أساسه ، بل كانت ضد تعاون الشاه مع الأجانب ومع الأنكليز في البداية ، وقد انتهى الأمر بالكاشاني أن يصبح رئيساً لمجلس النواب ، متعاوناً مع القصر ضد محمد مصدق حليفه ، أما مصدق نفسه ، رغم وطنيته وذكائه وإخلاصه ، فإنه لم تكن له قاعدته الشعبية العريضة ، وكانت هذه غلطته ! .

ولقد اضطر محمد مصدق في البداية ان يستعين بقاعدة حزب تودة الشيوعي ، وكانت في ذلك الوقت قاعدة منظمة . . . فاستعان بها لتدعيم حركته الوطنية من اجل التأميم ثم اختلفا ، بينما نرى الخميني يقضي خمسة عشرة سنة في المنفى ، فوق الأعوام الطويلة التي قضاها في الوطن داخل السجن وخارج السجن ، وهو ينسج خيوط تنظيمه الشعبي خيطاً خيطاً ، بالإضافة الى حركة التوعية الإعلامية الإسلامية الدؤوب التي قادها بمهارة في منفاه ، وشملت الإيرانيين في إيران . . . وفي أي مكان في العالم . . .

والورقة الرابحة في يد الخميني حتى الآن هي اقصاء الشيوعيين عن مراكز السلطة والإعلام داخل مراكز النفوذ وإدانتهم !

ومن المفارقات ان الشاه هو الذي دكّ له معاقل الشيوعيين ، فحين جاء بثورته كانت الشيوعية مهيضة الجناح مفككة الأوصال ، لهذا راحت تتستر تحت عباءة الخميني وتؤيده علناً ، وتجمع خصومه سراً . . في محاولة للعودة الى الساحة من جديد . وصبر الخميني طويلاً على الشيوعيين ، وتركهم يتساقطون !

أما اساليب المخابرت الأمريكية التي نشهدها الآن على الساحة الدولية فمن شأنها تقوية الثورة الإيرانية وتقليل نفوذ خصومها المحليين خاصة . . . ومن يدري ؟ لعل هدف الأمريكان الأساسي من وراء هذا الغباء المعلن انما هو إبقاء الثورة الإيرانية على هذا النحو من التوتر المستمر ، على أمل أن تساهم الأخطاء في تجميع اعداء الثورة بما فيهم الماركسيين في حزمة واحدة توجه فيما بعد ضد الخميني . وهذا يحتاج إلى نفس طويل وتخطيط ذكي ، فهل ان المخططات الأمريكية بمثل هذا المستوى ؟ ان الأمريكان خبراء في ضرب الثورات فقط ، ولكنهم ليسوا كذلك في تهيئة الكادرات التي تأتي بعد الثورات . . . فهذه البدائل تتمركس عادة قبل ان تقفز . ! ولكن في هذه المرة فان مخططات رجال الدين للبقاء في السلطة تعرف الكثير عن مخططات السوفييت والأمريكان وتعمل على احباطها ! .



«ونواب صفوي» زعيم حركة « فدائيان اسلام » من صورة التقطها له المؤلف أثناء زيارته دمشق

« نواب صفوي »
منظم الفداء الحديث

ظهرت منظمة « فدائيان إسلام » أيام آية الله كاشاني ، ثم صفيت بعد ذلك أثر مقتل زعيمها (نواب صفوي) ، وسرعان ما فرخت هذه الحركة منظمات على امتداد الساحة الإسلامية . لقد اتاحت لي ظروفي الصحفية مقابلة (نواب صفوي) في طهران ، ثم رافقته عام ١٩٥٣ يوم جاء الى دمشق وحل في دارة الوجيه الميداني الشيخ (ز . ش) . وقد رأيته يزحف على ركبتيه أثناء قيامه بزيارة مقام السيدة زينب . وكنت الصحفي الأول الذي ظفر منه بحديث نشرته في جريدة الجمهورية القاهرية التي كنت أراسلها .

لقد بدأت قصة (فدائيان إسلام) في عام ١٩٤٨ أثر الهزيمة العربية الأولى في الحرب ضد اليهود في فلسطين .

بدأت القصة في مدينة (النجف) الأشرف . . . وكان نواب صفوي ، صاحب فكرة فدائيان إسلام ورئيسها التنفيذي المباشر ، يجلس في مسجد الهندي بالنجف ذات صباح فوقعت في يده صحيفة إيرانية تحوي مقالاً كتبه الصحفي الإيراني المشهور (كسروي) .

ووجد (نواب صفوي) ان المقال يحمل طعناً في الدين الإسلامي ـ أو هكذا تصور ـ فاستشاط غضباً وذهب الى أحد المجتهدين يعرض عليه المقال ويسأله رأيه فيمن يكتب مثل هذا الكلام ؟

وقال المجتهد :

ـ كافر . ويحل قتله !

قالها المجتهد ببساطة ، ولم يكن يدري ان فتواه هذه ستكون أمراً بتأليف أكبر جمعية فدائية عرفها الشرق الإسلامي . واحتفظ (نواب صفوي) بفتوى المجتهد في قلبه ، وحمل عصا ضخمة في يده وسافر إلى طهران ليبحث عن (كسروي) الكافر الذي يحل قتله .

واستقر نواب صفوي في مسجد (سباه سالار) ـ أكبر مساجد طهران ـ وكان يقضي يومه جالساً في صحن المسجد على حافة البركة التي تتوسطه ، يراقب الأسماك الملونة الصغيرة وهي تسبح في مائها المثلج ، ويفكر ، ولا ينقطع عن التفكير في أفضل الطرق لقتل (كسروي) !

وكان (مسجد سباه سالار) ملتقى لجمع من الشباب المتدينين الذين تغلي في صدورهم براكين التدين مشتعلة متأججة . . .

وهمس (نواب صفوي) بفكرته ، وإذا صداها يجمع حوله عدداً من الزملاء هم (رواد فدائيان إسلام) الأول !

وسُجلت (فدائيان إسلام) عملياً حينما هجم ثلاثة من أعضائها على كسروي ـ الكافر الذي يحل قتله في رأي المجتهد ـ وظلوا يضربونه بالعصي الغليظة حتى سقط على الأرض ممزقاً ، واعتقد افراد فرقة الهجوم انه مات ، فانصرفوا عنه . ولكن الحياة لم تكن بعد قد انصرفت عن جسد (كسروي) وكان القدر يريد ان تكون لعمره بقية .

ونقل إلى أحد المستشفيات ، حيث أجريت له عملية بدأت الحياة على أثرها تدب الى جسده ، بعد أن كادت تفارقه . وأعلنت فدائيان إسلام ان ظهر الأرض قد طهّر من خائن استقر جسده النجس ـ تحت التراب ـ ، ثم اكتشفت بعد ساعات ان وجه الأرض لم يتم تطهيره . . . وان « كسروي » لم يمت ، بل أن الأمل كبير في شفائه . . وشفي كسروى وعاد

يباشر حياته العادية وهو يعلم ان سيوف التهديد التي شرعتها فدائيان إسلام مصلتة فوق رأسه .

وذات صباح وقف كسروي ـ وكان محامياً الى جانب كونه صحفياً ـ يترافع أمام إحدى الدوائر القضائية في وزارة العدلية بطهران ، وفجأة تسلل الى غرفة المحكمة أربعة على رأسهم نواب صفوي نفسه ، وفي هذه اللحظة بدأت الغرفة ـ غرفة المحكمة في وزارة العدلية ـ تدوي بطلقات الرصاص وهرب الذين كانوا في القاعة جميعاً ، شهوداً وحجاباً ومحامين ومتفرجين وأُغمي على القاضي الجالس فوق المنصة .

ولم يفلت كسروي هذه المرة فقد سقط قتيلاً وفي جسده ١٢ رصاصة ، وخرج القتلة الأربعة من دار العدلية ومسدساتهم في أيديهم ، ثم ابتلعتهم مساجد طهران ذات الظلال الغامضة !

وطلعت الصحف ببيان « فدائيان إسلام » تعلن فيه ان العالم قد استراح من شرور كسروي ، واستراح بحق وحقيق هذه المرة . . وألقي القبض على « نواب صفوي » وعلى نفر من أنصاره ووجهت اليهم تهمة قتل كسروي . . وبحثت العدالة عن شاهد إثبات واحد من العشرات اللذين كانوا في قاعة المحكمة ساعة وقوع هجوم فدائيان إسلام لقتل كسروي ، فلم تجد شاهداً واحداً يتقدم ، حتى القاضي الذي كان يجلس على منصته يباشر الأحكام بالعدل بين الناس قال انه لم ير شيئاً ، لقد سمع الرصاص يملأ جو القاعة ، وشاهد النار تطير من حوله فسقط مغشياً عليه ولم يشعر بشيء الّا بعد ساعات ! .

وجاء يوم النطق بالحكم على المقبوض عليهم الأربعة .

وحين دخل القضاة الذين سيصدرون الحكم في الصباح إلى دار العدلية ، فوجئوا بزينات غريبة على مدخل الدار ، وسأل القضاة عن سبب الزينات فقيل لهم انها احتفال بتبرئة نواب صفوي وزملائه . . وقال القضاة : ولكننا لم نصدر الحكم بعد . . وقيل لهم : ولكن (فدائيان

اسـلام) أعلنت ثقتها في عـدالتكم ، وعرف القضـاة ان هذه الـزينات ممتـدة من دار المحكمـة إلى بيت آية الله الكـاشاني الـذي دعا المتهمين ـ الـذين لم تصدر الاحكام عليهم بعد ، وقد قام نواب صفوى بدعوة المتهمين الى الغداء في بيته احتفالاً ببراءتهم . ! هكذا كان الامر قد فرغ منه وانتهى ، ولم يجد القضاة مفراً ولا مخرجاً فنزلوا عند حسن ظن فدائيان إسلام بهم وكان حكمهم بالبراءة .

على هذا النحو ولـدت أكبر حـركة فـدائية في العـالم الإسلامي ، لقـد أعـدم نواب صفـوي ، وأقصي الكاشـاني ، ولكن حركـة فدائيـان إسـلام قـد تقمصت في حركات أخرى .



« نور الدين كيانوري » الأمين العام للحزب الشيوعي الإيراني
السقوط المذلّ

. ويسألونك عن (الشيوعية) في إيران ؟ !

بعد هرب الرئيس الحسن بني صدر من طهران مرّ خبر في عتمة الأخبار لم ينتبه إليه أحد ، وحتى لم يعلق عليه أحد رغم أهميته . وخطورته بالنسبة لمستقبل الثورة الإيرانية ، وهو أن حزب تودة (الحزب الشيوعي الإيراني) دعا جميع اعضائه وانصاره والشعب الى التصويت لمصلحة محمد رجائي في انتخابات رئاسة الجمهورية . . وقال حزب (تودة) في بيانه :

(ان رجائي هو الوحيد بين المرشحين الأربعة الآخرين الذي ظل وفياً لالتزاماته التاريخية على خط الإمام الخميني ، وانه من أشد المناضلين ضد أعداء الثورة الإسلامية في الخارج ، والداخل ، وفي مقدمتهم الأمبريالية الأميركية . . وذكر (تودة) في بيانه انه ساند رجائي منذ تعيينه رئيساً للوزراء برغم النقد الخطير الذي وجهه إليه الحزب بسبب بعض مواقفه من السياسة الداخلية ، والخارجية ، والإجتماعية ، في مواجهة الجبهة المناهضة للثورة بزعامة بني صدر بهذا البيان الواضح خرج حزب تودة من عباءة بني صدر ، ودخل تحت عباءة رجائي ليستأنف مسيرته (المتلونة) في إيران على أمل أن تسقط (الثورة) في النهاية بقبضته بعد أن يكون الرفاق قد أثخن بعضهم بعضاً بالجراح !! ان حلم حزب « تودة » بالوصول إلى السلطة ليس

جديداً ، بل هو حلم قديم عاش في خيال مؤسس هذا الحزب ، ثم انتقل إلى الأفراد

أحكام قبضة رجال الدين على السلطة في إيران دفع بجميع القوى السياسية الى اتخاذ مواقعها ، ولعل ابرز قوتين يومها هما (مجاهدي خلق) وحلفائهم من الماركسيين ، وحزب « تودة » الشيوعي ، فإذا كانت القوة الأولى قد اختارت الدخول في معركة سافرة مع السلطة الممثلة برجال الدين ، فان القوة الثانية اختارت المناورة والتعايش مع الأحداث بانتظار الفرصة السانحة للإنقضاض على السلطة بكاملها . .

لقد أراد الشيوعيون ان يسرقوا الثورة منذ انطلاقتها الأولى ، فإذا باللجنة المركزية لحزب تودة الشيوعي تدعو الشعب الى الإصطدام بالجيش ، وتنبه آية الله الخميني إلى خطورة هذه الحركة ، فحذر انصاره وحلفاءه من (مجاهدي خلق) يومها ، وقال لهم :

(. . انها مكيدة دبرها الشيوعيون ليسقط فيها المسلمون وليقوم الإنقلاب عسكري) . . والشيوعيون يستفيدون من الإنقلابات العسكرية ، فعقب كل انقلاب عسكري يحدث مدّ شيوعي . .

وبعد أن كان الشيوعيون يمشون في شوارع طهران يهتفون (نموت ويحيا الخميني) أصبحوا بعد انتصار الخميني ينظرون إليه نظرة حذرة ، وكان الخميني قد أدلى بتصريحات في باريس الى جريدة « لوموند » قال فيها :

(ان الشيوعية ضد الإسلام ، وان الحكومة الجديدة لن يدخلها شيوعي واحد ، وان الشيوعية كفر والحاد)

وغضب الروس عندما أعلن الخميني انه سيكون من أول الأعمال التي سيقوم بها اغلاق مصنع مشروب الفودكا في إيران ، وهو مصنع أقامه الروس وتملكه الدولة .

بعد حادثة اغلاق المصنع بأيام قليلة بدأ أنصار حزب (تودة)

الشيوعي يحرضون في المظاهرات الشعبية المزدهرة على التخريب ، وحدث في مدينة (دزفـول) ان قاد بعض هؤلاء عـدداً من الشبان واقتحمـوا بيت أحد الضباط ، وانتزعوا ملابس زوجـة الضابط وتـركوهـا عاريـة . . . وما أن سمـع الجنـود والضباط بهـذا الحـادث حتى جن جنـونهم ، وخـرجـوا يؤدبـون أهـل المدينة ، وقتلوا ستة من المدنيين وجـرحوا عشـرين ، واضطرت قيـادة الجيش ان تـذيع اعتـذاراً لأهل المـدينة قـالت فيه ان بعض سيئي النيـة حاولـوا إثـارة الضبـاط والجنود ونجحـوا لـلأسف في ذلـك . . وأصـدر حـزب (مجـاهـدي خلق) يـومها بيـاناً ضـد التخريب مشيـراً إلى أن هذه الحـوادث ستتكرر حتى ينفد صبر ضبـاط الجيش ويحدث الإنقـلاب العسكري ، وهـذا لن يتم طالمـا بقي حزب مجاهدي خلق يدافع عن الثورة الإسلامية ! .

جاءت تطورات الأحداث بعد ذلـك لتبعد مجـاهدي خلق عن الثـورة ، وتقرب الحزب الشيوعي الإيراني . . . والحقيقـة ان حزب (تـودة) في تأييـده لمحمد رجائي في انتخابات رئاسة الجمهـورية إنمـا يطبق مكيـدة جحا عنـدما تعهـد للسلطان ان يعلم حماره القـراءة والكتابـة في خلال خمس سنـوات في مقـابل ألف دينـار يقبضها مؤقتـاً . ! وقيل لجحـا كيف تقبل مثـل هذا الـرهان الخاسر . . قال جحا :

- (في خمس سنـوات إمّـا أموت أنـا ، أو يمـوت الحمـار ، أو يمـوت السلطان ! .)

فمن الآن الى ما بعد سنـة او سنتين تكون الإنقسـامات قـد تعمقت بين رفاق الأمس ، وخاصـة بين حزب الجمهـورية الإسـلامية ، وحـزب مجاهـدي خلق ، وعندها تكون الثورة قد اينعت وحان قطافها !

فمـا هي قصة (حـزب تودة الشيـوعي) ؟ الذي يعمـل منذ قيـامه ضمن مخطط الإنقضاض على السلطة في اللحظة الحاسمة !

كان الوضـع في إيران بعـد انفصال حـزب مجاهـدي خلق عن الثورة ،

وتظاهر حزب « تودة » بتأييد الثورة الإسلامية مليئاً بالإحتمالات ، والأحداث ، والأزمات ، والمؤامرات . .

يطلق على حزب تودة في إيران لقب (منتهز الفرص) ، فهو ينتهز كل فرصة ، وكل أزمة ، وكل مؤامرة ، وكل ذعر . . وتاريخه شاهد على هذا منذ انطلاقه في العمل السياسي السري والعلني حتى الآن .

كل الذين عاصروا الأحداث الصاخبة في إيران أكدوا أن حزب تودة الشيوعي لم يلعب دوراً ظاهراً - على الأقل - في أزمة تأميم البترول ، وكان بعيداً عن حركة الإغتيالات التي قادتها حركة (فدائيان اسلام) هذه الحركة التي تعتبر بمثابة الأب الروحي لكل الأحزاب التي جعلت العمل الفدائي شعاراً لها ! ولم يكن حزب تودة أيام زعامة (آية الله كاشاني) يملك قوة تسيطر في طهران يوم كان الكاشاني يقذف الى شوارع العاصمة بالمظاهرة إثر المظاهرة . .

كان حزب (تودة) قوة ضخمة قبل هذا كله ، . . وكان أقوى الأحزاب ، وأكثرها تنظيماً ، برغم انه كان منحلاً بحكم القانون ، ولكن هذا لا يمنع من التأكيد بأن حزب تودة أيام زعامة الكاشاني لم يكن من أسباب إثارة أزمة البترول ، وما ترتب عليها من اغتيالات ، وكان حزب تودة بين الذين فوجئوا بقوة فدائيان اسلام . . ولكنه لم يترك الفرصة تفلت من يديه !

فإذا هو يحشد كل قواه ليستغل الأزمة في أغراضه ، ويوجه تطوراتها إلى الإتجاه الذي يريده ، تماماً كما يفعل الآن مع آية الله الخميني ، يحالف بني صدر سراً ، ويدفعه للقيام بحركة تمرد ضد الخميني ، وحين يقع بني صدر يتركه لمصيره وينفذ الى الرجل الذي سيخلفه (محمد علي رجائي) فيبادر إلى إعلان تأييده له .

يقول دزرائلي :

(. . ان حبل السياسة أدق من الشعرة ، وأحد من السيف ، والذين

لعبوا عليه سقطوا جميعاً من فوقه ، بعضهم سقط بعد الخطوة الأولى ، وبعضهم سقط بعد الخطوة الثانية أو الثالثة ، وبعضهم استطاع ان يخطو فوقه خمس خطوات كاملات . . ثم سقط . .).

ان حزب توده قد كسر هذا الرقم . . فبعد سقوط بني صدر راح يخطو الخطوة السادسة !.

حين ظهر حزب « تودة » الشيوعي في أحداث تأميم البترول أيام مصدق بقوة لم تكن معروفة ، أحس آية الله كاشاني ، وأحس معه نواب الكتلة الوطنية ، وهم جميعاً من (الراديكاليين) ، أحسوا ان حزب « تودة » الشيوعي يتحفز ويتحرك بسرعة لإستغلال الإضطراب الذي سببته الإغتيالات التي قامت بها منظمة فدائيان إسلام ، ولكن الكاشاني ونواب الكتلة الوطنية ، واليمين كله ، كانوا يغلبون كفة التفاؤل على كفة التشاؤم ، وحين اجتمعنا ، ونحن في طهران نغطي هذه الأحداث ، بآية الله الكاشاني فهمنا منه ما يلي :

١ ـ تحاشي الإحتكاك علناً بحزب « تودة » ما دام يسعى ـ في الوقت الحاضر ـ الى نفس الأغراض التي يسعى إليها آية الله كاشاني وكتلته النيابية .

٢ ـ السيطرة على الموقف بسرعة . .

٣ ـ الإلتفاف بعد ذلك على حزب « تودة » وتوجيه ضربة له . (يظهر ان آيات الله يفكرون تفكيراً متشابهاً ، فالخميني ايضاً طبق نفس التفكير مع حزب تودة) .

ولكن الكاشاني وأنصاره كانوا متفائلين أكثر مما ينبغي . . والنتيجة كانت بعد اسبوع واحد حين استدعينا نحن الصحفيين من فندق ريتز في طهران ، والذين كتبنا الى صحفنا ان آية الله كاشاني هو سيد الموقف ، عدنا بعد اسبوع واحد نكتب ونؤيد ان السيادة تنتقل بسرعة إلى أيدي حزب

تودة . . . وكان حزب تودة مستعداً لاقتناص الفرصة التي كافح وصبر وتحمل كل شيء من أجلها منذ أكثر من عشرين سنة (حزب تودة بدأ نشاطه في الثلاثينات) .

لقد تخلى حزب تودة عن الكاشاني ومصدق وفدائيان اسلام ، وتحالف سراً مع الشاه .

عشرون سنة قضاها حزب تودة يستعد ، ويكافح ، ويصبر ، ويقاسي !

لقد بدأت حكاية حزب تودة مع بداية عام ١٩٠٠ على وجه التقريب ، وكان الدكتور « آراني » استاذ الكيمياء في جامعة طهران هو الرجل الذي شاء له القدر أن يكتب السطور الثانية في الحكاية .

أما السطور الأولى فقد كتبها أمير اعتنق الشيوعية .

كان « آراني » يدرس الكيمياء في برلين ، وفي هذه الفترة اتصل بالحزب الشيوعي الألماني الذي كان قوياً قبل أن يلي هتلر أمور المانيا ، وعاد الدكتور « آراني » بشهادة الكيمياء ظاهرة في يده ، وبعقيدة الشيوعية مستترة في ضميره .

ان هذه الوقائع تستلزم العودة الى أصل حكاية (الحزب الشيوعي) في إيران . . . ومن عندها نبدأ .

كان الأمير (سليمان ميرزا اسكندري) وهو من أحفاد (ناصر الدين شاه) أحد ملوك أسرة (قاجار) التي حكمت إيران قبل مجيء أسرة بهلوي ، أول من أعلن نفسه شيوعياً في إيران .

وبفضل ثرواته وقدراته ، تمكن الأمير سليمان من أن يجمع حوله بعض المثقفين الإيرانيين ، وأسس أول حزب اشتراكي في إيران قبل ثورة (اكتوبر) السوفيتية بـ ١٥ عاماً ، أي عام ١٩٠٢ .

كان رجال السياسة في ذلك الوقت من الأرستقراطيين ، والأسرة

المالكة ينظرون الى الأمير (الثوري) نظرتهم الى (رجل مجنون) ثائر ضد نفسه ، وضد المجتمع الذي ينتسب إليه .

وبعد أن انتخب الأمير سليمان ميرزا مندوباً في المجلس التأسيسي لتغيير الدستور ، واحلال أسرة (آل بهلوي) محل أسرة (آل قاجار) ، أفل نجمه ، ونسي الناس ما فعله الأمير الشيوعي الذي حارب اسرته دفاعاً عن الشعب وسعياً وراء التغيير ، ومحاولة تحويل إيران الى جمهورية .

في ذلك الوقت قامت ثورة اكتوبر في روسيا ، وكانت إيران في مقدمة الدول التي اعترفت بالإتحاد السوفييتي ، وقام رئيس الوزراء الإيراني وقتها بارسال أول رسالة الى (لينين) قال فيها : (. . يا من حررت بلادك ساندنا كي نحرر بلادنا . نحن ننتظر منك الدعم ، وأنت زعيم دولة كبرى) .

وجاء ردّ (لينين) أكثر وداً مما كان ينتظر إذ قال في رسالة جوابية الى رئيس وزراء إيران : (عزيزي رئيس الوزراء ، نحن نعلن لكم وأمام العالم اننا نعفيكم من تسديد كل الديون السابقة واللاّحقة) .

وبهذه العبارة الشهيرة بدأت العلاقات بين إيران والنظام الثوري في الإتحاد السوفييتي . . لكنها علاقات لم تدم طويلاً حيث أعلن الحزب الشيوعي السوفييتي دعمه لثوار (الغابة) ، وهو الأسم الذي كان يطلق على مجموعات تتخذ من الغابات الإيرانية في شمال إيران قرب بحر (قزوين) مسرحاً لها عام ١٩٢١ .

وعندما هاجمت القوات الحكومية مواقع الثوار الشيوعيين في اقليم (كيلان) واستولت عليها وجدت مطبوعات كتب عليها (الحزب الشيوعي الإيراني) ، كما عثرت القوات الحكومية على كميات كبيرة من الأسلحة الروسية مهداة الى الثوار الإيرانيين من الحكومة السوفيتية .

بعد هذا الحادث توترت العلاقات بين طهران وموسكو ، وأمر رضا شاه باعتقال قيادات اليسار . . (٥٣ من اساتذة الجامعات والمهندسين

والأطبــاء الإيــرانيين) ومن بينهم الــدكتــور (رتقي آراني) أول زعيم رسمي لحزب (تودة) مع اثنين من الذي اسسوه وهم في السجن عام ١٩٣٧ هما : (رضا رادمنش) و (خليل ملكي) .

كان (رتقي آراني) الذي عاد من برلين بشهـادة الكيمياء قـد عين استاذاً لهـذه المادة في جـامعة طهـران ، ولكن دروسه في الكيميـاء كانت أقـل بكثير من دروسه عن الشيوعيـة . . ثم ازداد نشاطـه وخرجت دعـوته من الهمس بين طلابه الى الجهر والعلن ، فقد بدأ يصدر جـريدة اسمهـا (دنيا) تنـطق بلسان الدعوة الجـديدة ، وأخـذ يعقد في بيتـه اجتماعـات دورية يحضـرها عـدد من شباب وأساتذة الجامعة وطلابها .

وكـان لا بد لنشـاط الدكتـور (آراني) ان يلفت إليه نـظر صقـر طهـران في ذلـك الوقت ، وهـو الجنرال بختيـاري رئيس البوليس السيـاسي في مطلع عهد الشاه رضا بهلوي .

وذات صباح تغيب الدكتـور (آراني) عن محاضـرته العـادية في جـامعة طهـران ، ثم عرف أن البـوليس السياسي قـد القى القبض عليه ، وأودعـه في السجن ، ومرّت بضعة شهور ، ثم صدر في طهران بلاغ رسمي يقول :

(ان الدكتور آراني قد توفي في سجنه مريضاً بالتيفوس) .

ورفض أنصاره وطّلابـه تصديق قصـة مرضـه ، وتواتـرت الشائعـات بأن الشـاه رضا بهلوي قـد أمر طبيبـه الخاص ، فحقن الـدكتـور (آراني) بـالسم ليأمن أذاه وأذى الدعوة التي يبشر بها .

ودفن الـدكتور (رتقي آراني) في مقـابر (امـام زاده عبـد الله) ، ولكن القصة لم تنته !

لقد جعل منه أنصاره وطلابه اسطورة استشهاد ، ورأى الشـاه بتدبيـر من الجنرال بختياري ان الأمـر يقتضي مزيـداً من الحزم ، فصـدرت الأوامر بـالقاء القبض على عدد من مريـدي (آراني) ، وظلوا في السجن سنوات متعـاقبة ،

ثم تطورت الأحوال، ودخل الحلفاء ـ الروس من الشمال ، والإنكليز من الجنوب الى إيران ١٩٤١ ـ ونزل الشاه رضا بهلوي عن العرش لابنه ، وكان أول شيء فعله الروس في إيران فتح باب السجون أمام الإثنين والخمسين شاباً من تلاميذ (آراني) الذين خرجوا من السجن ليؤلفوا (حزب تودة) ، أي حزب الشعب !

وكان من بين الخارجين من السجن (نور الدين كيانوري) صديق (آراني) في السجن فانتخب اميناً عاماً رسمياً للحزب الشيوعي الإيراني .

كان كيانوري شاباً درس في ألمانيا ، وعاد الى طهران متخذاً من رفاقة الـ (٥٢) في السجن القاعدة القيادية للحزب .

بدأ (كيانوري) مع هؤلاء بتنظيم حركة سرية لمؤازرة سجناء الحزب الشيوعي ، وعندما قتل آراني حل محله في القيادة (خليل ملكي) ، في ذلك الحين اشتعلت الحرب العالمية الثانية ، وكان (رضا شاه) من المعجبين بهتلر ، ويحلم بانتصار الألمان ، وعندما دخل الحلفاء إيران وأجبروا الشاه على التنازل عن العرش لأبنه الشاب الأمير محمد رضا بهلوي ، ونفي الوالد الى (جنوب افريقيا) فتحت السجون أبوابها ، وأفرج عن السجناء السياسيين ، والشيوعيين الذين كان عددهم قد ارتفع داخل السجن الى (٣٠٠) ايراني .

اشترط الحلفاء على الشاه الجديد ان يكون حكمه ديمقراطياً ، فارتفع عدد الأحزاب في الأربعينات ، وأعلن عن تأسيس حزب (تودة) الشيوعي ، وفي عام ١٩٤٣ وصل عدد أعضاء الحزب الى نصف مليون ، وكان أكبر الأحزاب الإيرانية وقتها ، وكان له ١٦ مقعداً في البرلمان وله في الحكم اربعة وزراء.

كان كل شيء يسير وفق تخطيط الشيوعيين حتى جاء عام ١٩٤٤ عندما اعلنت مجموعة من الشيوعيين الإيرانيين في اقليم آذربيجان التي كانت

تحتله قوات الجيش الأحمر السوفييتي عن تشكيل (جمهورية آذربيجان الديمقراطية) ، وحاولت فصل هذا الإقليم الإيراني عن الوطن ، وكان أن ارتكب حزب (تودة) خطأً فاحشاً ، وأعلن امينه العام عن تأييد الحزب المطلق للجمهورية التي صنعها السوفييت .

في عام ١٩٤٥ أرسلت الحكومة الإيرانية قوة مسلحة الى (آذربيجان) قامت بتحرير الإقليم بعد اتفاق تم التوصل إليه بين (ستالين) ، ورئيس وزراء إيران اوقفت موسكو بمقتضاه دعمها للمتمردين الشيوعيين في (آذربيجان) مقابل اعطاء إيران للسوفييت حق التنقيب واستخراج النفط الإيراني في الحقول الشمالية .

خسر الشيوعيون المعركة ، وأعلن رئيس الوزراء الإيراني ان الذين كانوا يعملون لصالح الأجنبي قد خانوا البلاد ، ولا يمكن لهم الإستمرار في الخيانة وأمر باغلاق صحف ومكاتب حزب (تودة) الذي استمر يعمل ، ولكن تحت اسماء مختلفة مثل (جمعية انصار السلم العالمي) و (جمعية اصدقاء الشعب) .

في عام ١٩٤٨ هاجم أحد اعضاء حزب (تودة) الشاه في جامعة طهران ، وأطلق عليه ثلاث رصاصات فأصيب الشاه ، وقتل الجاني على الفور ، وشنّت السلطات حملة اعتقالات واسعة في صفوف الشيوعيين .

عندما جاء مصدق الى الحكم في عام ١٩٤٩ ، سمح للعديد من الأحزاب ، ومن بينها حزب (تودة) بحرية الحركة والعمل .

وهنا نشير الى ما قاله (مكسيم رودنسون) الكاتب المعروف في كتابه (الأحزاب الشيوعية في العالم العربي) عن أن حزب (تودة) الإيراني ارتكب خطأً كبيراً في تقييم دور مصدق والحركة الوطنية الإيرانية ، مثله مثل بقية الأحزاب الشيوعية في كل من مصر وسورية تجاه الحركة القومية العربية التي قادها جمال عبد الناصر ، وهي مواقف تشبه تماماً مواقف حزب توده

تجاه مصدق .

مصدق لم يكن ديكتاتوراً ، بل كان وطنياً يحلم بتحرير وطنه من الإستعمار ، لكن حزب « تودة » اتهمه بأنه رجل (الأمريكان) ، وعميل للاستعمار ، واقطاعي أرستقراطي .

كان مصدق يقود حركة تأميم النفط ضد الإنكليز ، لكن حزب تودة كان ينادي باعطاء نفط الشمال الى الإتحاد السوفييتي ونفط الجنوب الى بريطانيا .

ولأن توجهات مصدق كانت ضد مصالح اليمين الإيراني ، فقد وجد هذا اليمين ضالته في حزب (تودة) ،الذي كان يهتف في الشوارع بسقوط مصدق، شريكاً طبيعياً له ، وفي عام ١٩٥١ تمّ تأميم النفط ، واستمر حزب اليمين وحزب (تودة) ضد مصدق ، وبدأ الشاه يفكر في توجيه ضربة إليه ، وعندما جاء عام ١٩٥٣ اصبحت الفرصة سانحة ، وتمكن الشاه بدعم من الأمريكيين وحزب (تودة) الشيوعي من اسقاط مصدق واعتقاله ورفاقه ، وانفرد بالحكم الديكتاتوري لإيران فكان ان لزم حزب (تودة) الصمت ، وعاد الى العمل السري في المخابىء ، إلى أن جاء دوره .

وعلى مدار ٢٥ عاماً ، منذ انقلاب الشاه ضد مصدق ، وحتى الثورة الإيرانية ضد الشاه لم يتوقف حزب تودة عن تلقي التعليمات من موسكو . كانوا يهاجمون الشاه بأوامر من هناك ويمتدحونه إذا ما طلب منهم (الرفاق) ذلك . . وتحفل الوثائق التاريخية بمراسلات بين كبار قادة حزب (تودة) والشاه وكانوا ينادونه بـ (جلالة الشاه المعظم) ، ومنهم من انتخب وزيراً ونائباً ، وكانوا يعملون في خدمة الشاه بأوامر من لجنة (الرفاق المركزية) .

وعندما بدأت الأحداث الإيرانية ، وفي الأيام الأخيرة من حكم الشاه لم يشارك (الرفاق) من الشيوعيين الإيرانيين الحركة الثورية الجديدة لأنهم

كانوا يسيرون على طريق موسكو . وموسكو لم تكن تـريد ازعـاج الشاه بسبب العلاقات التجارية ، وخطوط أنابيب الغاز الإيراني الى الإتحاد السوفييتي .

سقط الشاه ، وجاء الخميني ، وشـاهد النـاس (نور الـدين كيانـوري) الأمين العـام للحزب ورفـاقه ، وهم يـأتـون الى طهـران من مـوسكـو ، وعلى صدورهم صور الخميني ، وعلى السنتهم آيات القرآن الكريم .

ومثل هذا الموقف وإن لم يكن مستغرباً من كيانوري بسبب تاريخه المتلون ، الاّ ان الـدهشـة كـل الدهشـة كانت تعقـد السنة النـاس وهم يشاهـدون الشيـوعي (العلماني) احسان طبري يخطب في المساجد ، ويـدبج المقـالات المطولـة وينشرها في جريدة حزب تودة (الشعب) في مدح آيات الله .

وهذه كانت المـرة الثالثـة التي يرتكب فيهـا حزب (تـودة) الأخطاء في حساباته . وقد وصل الحزب الى حد مسانـدة آيات الله علنـاً ، فاصـدر أوامره الى الأعضـاء بالتجسس على الشعب لصـالح الحـركة الثـورية ، وقـام ائتلاف قـوى بين حزب تـودة ، وجماعـة خط الخميني ، كما لعب الحـزب الشيـوعي دوراً كبيـراً في حـادث الـرهـائن الأمـريكيين . . وسـارع الحــزب الى تقـديم خبراته وتجاربه الى جمـاعة الخميني لمكـافحة المعـارضة ، وكـان وراء ابلاغ السلطات بمـا سمي بمؤامرة بني صـدر ، ومجـاهـدي خلق ضـد الخميني في عـــام١٩٨٠ ومؤامـرة قـطب زاده ضـد النـظام في عـام١٩٨٢ ،وهنـاك أدلـة قاطعة تؤكـد دون شك أن السـوفييت أعطوا الحزب اشارة الضوء الاخضر، لإبلاغ النظام بوجود تنسيق بين بني صدر ورجـوي مرة ، ومـرة اخرى بين قـطب زاده وآية الله شريعة مداري .

وماذا كانت (الجائزة) التي قدمها الخميني الى حزب (تـودة) ؟

في الحقيقـة ان حـزب تـودة لم يكن ينتـظر جـائـزة ، بـل كـان يعمــل لاقتناص الثورة من أيـدي رجال الـدين ، وقد اعتـاد (كيانـوري) ان يردد في مجالسه الخاصة مقولة أصبحت معروفة . . كان يقول :

(نحن نعلم بآراء الخميني ضدنا ، ونحن ندعم الخميني لأننا نؤمن بحتمية سقوط ثورته ، ولا بدّ لنا ان نضع ايدينا على كل شيء . . وعندما تسقط الثورة ستكون لدينا الفرصة لمحاسبة اعدائنا) .

ولسوء حظ حزب تودة تغيرت القيادة السوفييتية بوفاة بريجنيف ، ومجيء رجال جدد للقيادة يعرفون إيران أكثر من (كيانوري) وحزبه . . وبدأت الحقائق تتضح لرجال الثورة الإيرانية أكثر فأكثر وأمرت الحكومة الإيرانية باعتقال قادة الحزب وكشف الاعيبهم للناس ، وكان سقوط حزب (تودة) هذه المرة مروعاً . .

كان سقوط (نور الدين كيانوري) مدوياً ومخزياً بدرجة لم يتوقعها أحد حتى أشد منتقديه وخصومه السياسيين . . ولم يكن انكساراً مادياً كالذي يحدث كثيراً لأصحاب الأفكار السياسية المهزوزة حين يتراجعون عن كل معتقداتهم ويتنكرون لها ببساطة تصل الى حدّ الصفاقة .

لقد وقف (كيانوري) أمام الملايين من ابناء شعبه ليعلن أنه لم يكن أكثر من مجرد خائن نقل اسرار بلاده العسكرية والسياسية الى بلد أجنبي . . قال : انه يستحق الموت ، بل ويطالب بتطبيق أقصى العقوبة عليه وهي الإعدام . .

الى هذا الحدّ انحدر الرجل الذي مارس السياسة أكثر من أربعين عاماً ، والى هذا المدى انهار حزب سمح بأن تتولى هذه الشخصية المريضة أرفع مناصبه لتصل به في النهاية الى مأساة بحجم مروع سيدفع ثمنها خمسون الفاً من العناصر التي انضمت الى هذا الحزب ، وخدعتها شعارات النضال البراقة التي كان يرددها (الزعيم) .

ان قصة (نور الدين كيانوري) زعيم الحزب الشيوعي الإيراني (تودة) تستحق البحث من الجذور ، ومعرفة أسباب لجوئه الى السير في طريق المأساة ليسقط في النهاية بهذا الشكل الذي وصفه آية الله الخميني

نفسه بأنه معجزة لم يكن أحد يتوقعها .

لقد أحاطت الكثير من الشكوك ، والظلال بحزب (تودة) طوال مسيرة الحركة الوطنية الإيرانية ، وخلال ٤٢ عاماً هي عمر الحزب قدّم العديد من الأمثلة (الإنتهازية) التي تصل الى حدّ الغباء.

كان (كيانوري) ورفاقه يعيشون في وهم أن المهادنة ستحميهم من البطش ، وحين سقط هذا (الزعيم) لم يرتفع صوت واحد للدفاع عن الحزب وأمينه العام ، وتم اعتقال كيانوري ومعه ٣٠ من كبار زعماء حزبه الذين وصفتهم جريدة (برافدا) السوفييتية وحدها بأنهم أعظم أجنحة الثورة الإيرانية .

وبعد أسابيع قليلة ظهر (كيانوري) على شاشة التلفزيون الإيراني ، وخلفه صورة آية الله الخميني ليعترف بأنه كان جاسوساً خائناً . . . وكان السؤال الذي تردده اذهان الملايين من ابناء الشعب الإيراني هو: كيف يمكن لماركسي اعتنق الماركسية لمدة ٤١ سنة ان يدلي بمثل هذه الإعترافات المخزية ؟

والغريب أن بقية زعماء حزب (تودة) كان موقفهم لا يختلف عن موقف زعيمهم كيانوري ، فقد أعلن (محمد علي أموي) زعيم الجناح العسكري لحزب (تودة) ان حزبهم غير شرعي ، وأنه مجرد أداة في أيدي الإتحاد السوفييتي .

وقال (غلام عباس) عضو اللجنة المركزية بالحزب انه اشترك مع كيانوري في كتابة تقارير سياسية عن ايران وقدماها للسفارة السوفييتية في طهران ، وكان هذا هو نفس اتجاه (٧٠) من كبار قادة الحزب .

ان جريمة الخيانة الحقيقية التي ارتكبها كيانوري كانت في حق خمسين ألف عضو انضموا لحزبه . . ولنا أن نتصور حجم الإحباط في نفوسهم ، وهم يرون زعيم الحزب يدلي باعترافاته المخزية ، ويطالب

سلطات إيران بأن تعدمه .

وقـد صاحب حـل حزب (تـودة) قرار طـرد ١٨ دبلوماسيـاً سوفييتيـاً من إيران ، ولم يكن غريباً ان تتم هذه الخـطوة في الوقت الـذي يشهد فيـه العالم حملة طرد للدبلوماسيين السوفييت من الدول الغربية مثل بريـطانيا ، وفـرنسا ، وامريكا واستراليا وسويسرا . .

ان قصـة هذا الـزعيم الشيوعي يجب أن تكـون عبرة لكـل من يتوهم ان (الإنتهازية) وسيلة من وسائل الحياة ، أو ان الخضوع هو طريق النجاة . !

الاتحاد السوفييتي في إيران نحو الإختراق (الثغرة) !

لئن كان الغرب قد اهتم بمناطق له فيها بعض النفوذ ، فانه نسي أو تناسى إيران ، وبالرغم من ذلك فانه تابع باهتمام ما يجري في طهران ، حيث ان الاتحاد السوفييتي كسب جولات . . وجولات !

في ٢٣ شباط (فبراير) ١٩٨١ ابرز (ليونيد بريجنيف) في تقريره الى المؤتمر السادس والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي ، أبرز ، وبعبارات متنوعة ، ومنمقة ، موقف الإتحاد السوفييتي من إيران . . ذلك الموقف المتحفظ ، والمستغل ، والإنتهازي لما يجري في إيران . . اذ قال :

(ان الثورة الإيرانية التي أصبحت ظاهرة مهمة في الحياة الدولية في السنوات الأخيرة ، تتمتع بطابع خاص بكل ما تحتويه من تعقيدات ، وتناقضات ، وتشكل في أساسها ، ثورة ضد الامبريالية بالرغم من أن طابعاً (رجعياً) داخلياً وخارجياً ، يعمل على تعريتها من هذا الطابع وإزالته .

ان الشعب الإيراني يشقّ طريقه نحو الحرية ، والإنفتاح ، والإزدهار ، ولذا فاننا نتمنى من الصميم النجاح في هذا المجال ، ونحن على استعداد لأن نُوَثِّق مع إيران أحسن العلاقات على أساس مبدئي بالمساواة ، وبالطبع على أساس المعاملة بالمثل .

ان شعارات الإسلام تنتشر في هذه الأزمنة ، في بعض البلاد

الشرقية ، ونحن ، الشيوعيين ، نحمل ، ونفكر ، فيما يتعلق بالعقائد الدينية موقفاً كله احترام ، وتقدير لهذه العقائد الإسلامية التي يؤمن بها السكان ، كما نحترم كل دين وعقيدة .

والمهم هو ان نعرف الأهداف التي تسعى اليها هذه القوى التي تنتمي الى هذه العقيدة أو تلك ، ونحن نرى ان معركة التحرير يمكن لها أن تظهر وتنتشر تحت راية الإسلام ، والتجربة التاريخية ، حتى الحديثة منها تثبت ذلك ، ولكن هذه التجربة تكشف أيضاً ، أنه تحت شعارات ، وتعليمات الإسلام تشكل حركة (رجعية) قد تؤدي الى ثورات مضادة ، وبالتالي تظهر ضرورة كشف المحتوى الحقيقي لمثل هذه الحركة أو تلك . .).

وبهذا تؤكد موسكو عطفها ، وتجاوبها مع الثورة الإسلامية ، ولكن مع الإشارة الى قوة الأخطار التي تهدد الثورة إذا ما اتبعت خطأ ، أو توجيهاً مضللاً .

وهذا الموقف (المتوازن) يترجم على الأرض بسياسة سوفييتية ، هي سياسة (بيزنطية) بحق .

وبالرغم من التطورات التي طرأت على الحرب العراقية الإيرانية ، فان الإتحاد السوفيتي يثابر على تقديم دعمه ، وبشكل غير مباشر ، لطهران ، اذ أنه يؤمن مرور ٣٠ الى ٥٠ بالمائة، عبر نهر (الفولجا) ، وبحر (الخزر) ، والخط الحديدي عبر سيبريا ، من مستوردات إيران القادمة من اوروبا ، واليابان ، وكوريا الشمالية ،ومن الصين أيضاً . وازدياد هذه الحركة التجارية وحركة المرور تسمح لإيران بالتزود بالمواد اللازمة وبشكل طبيعي بالرغم من اغلاق الخليج .

ومن جهة أخرى فان الكرملين كان يقترح على الحزب الشيوعي الإيراني (تودة) الولاء المطلق للثورة الإيرانية مهما كانت ردود الفعل المذلة للحزب .

وكان حزب (تودة) يقبل هذا التحرك التعليلي بشكل عام بالرغم من وجود معارضة داخلية لهذا التحرك . . وهل لنا ان نستغرب هذا ؟

ان موسكو في نفس الوقت تدعم العراق الذي وقع معها عام ١٩٧٢ معاهدة صداقة وتعاون وارتبط بالكوميكون (المنظمة الإقتصادية الشيوعية) ، وحضر العراق كمراقب بعض اجتماعات هذه المنظمة ، وقبل التعاون معها (ولم يحضر العراق آخر اجتماع لها في حزيران ١٩٨٢) .

ذلك ان موسكو تعتبر العراق مركز انطلاق نحو الخليج وإماراته ، ونحو الدول غير المنحازة . والحظر الجزئي الذي فرضته روسيا حول تزويد العراق بالأسلحة السوفييتية لم يدم الاّ خلال ايلول ١٩٨٠ حتى تموز ١٩٨١ ، وبعد هذا كانت العراق تتزود بهذه الاسلحة عبر دولة مجاورة في بادىء الأمر ، وهي تتزود حالياً بها عن طريق الأردن والكويت بمعدل ثلاثمائة طن يومياً . .

وبين العراق الذي كان الى حد ما صديقاً للإتحاد السوفييتي ، وبين إيران التي تظهر العداء المكشوف لأمريكا ، فان الإتحاد السوفييتي يقدم تأييده لهذين الطرفين المتحاربين ، وان كان بشكل مستتر ، ولكنه يحاول المحافظة مهما كلفه الأمر ، على مكاسبه . . هذا مع استعمال بعض أساليب الضغط والموازنة بينها ، كل هذا تهيئة للمستقبل .

اذن ، على ماذا يريد الإتحاد السوفييتي ان يحصل من إيران ، وما هي الوسائل التي يستعملها ؟

ونظرة مجردة الى التاريخ تبين لنا ان الإتحاد السوفييتي استعمل الطرق المتنوعة للعطاء . . حيث تتلاقى أو تتعارض المبادرات الثورية للشيوعيين فيها أو للأقليات المساندة للشيوعية . واعتماد العمل الكلاسيكي من دولة إلى دولة ، ذلك العمل الذي يأخذ طابع الضغط في بعض الأحيان .

وتنحصر الأساليب السوفييتية خلال تقديمه العطاء وفق الوسائل التالية :

من التدخل الى رغبة المراقبة غير المباشرة .

منذ ان وجدت روسيا على الخريطة السياسية وهي تهتم بالأمبراطورية الإيرانية عبر بحر (الخزر) ، ونهر (الفولجا) ، سواء كان هذا الإهتمام لتجارة مثمرة ، أم لتهديد خطير ! (والتاريخ يبيّن لنا الغزوات الروسية لشمالي إيران) .

وقد ازدادت الغزوات الروسية لآسيا الوسطى ذات الحضارة الإيرانية خصوصاً في أواخر القرن التاسع عشر .

وكانت هذه الغزوات تجسد اهتمام روسيا ببلد له معها حدود مشتركة تحاول من خلالها تثبيت بعض النفوذ .

وبزوال اسرة (قاجار) تأسست عام ١٨٧٨ كتيبة من القفقازيين الإيرانيين يقودها ضباط روس . . الاّ ان التدخلات الروسية والإنكليزية المتنافسة أدت الى اضطرابات أثّرت على إيران ، وهكذا فان في ثورة تبريز عام ١٩٠٨ ظهرت قوات قيصرية روسية في أذربيجان الإيرانية ، ولما بدأت أحداث عام ١٩١٧ أخلت القوة الروسية إيران وحلت محلها قوات الأمبراطور .

وقد أيقظ التدخل البريطاني في (باكو) و (أشخاباد) ـ وهي اليوم عاصمة أذربيجان وتركمانستان السوفييتية ـ عام١٩١٨ ، والدعم الذي قدمته الحامية البريطانية في (مشبهد) ـ في شمال شرق إيران ـ للثوار المسلمين في آسيا الوسطى (الباسماتشي) أوائل العشرينات أيقظ هذا وذاك الإهتمام السوفييتي للقضايا الإيرانية . .

وعلى الأغلب ، لكي تبعد التمرد والثورة عن أراضيها قررت موسكو ان تساند بدورها ثورة أخرى ، فساندت ثورة (الجنكليس) على شواطىء

بحـر (الخزر) في مقـاطعة (غيـلان) ، علماً ان البـلاشفـة لم يشعـروا بـأي عـطف أو تجـاوب مـع سكـان الجبـال القسـاة ، والـذي كـان يقـودهم شـاب متـدين ، ومحب لـوطنـه (ميـرزا كـوجيـك) الاّ ان هـذه الثـورة كـانت ضـد البريطانيين الأمر الذي منح السوفييت رأس جسر في إيران ، فأوفدت أسطولاً وعدداً من الثوار الذين كان يقـودهم (حيدر آمـو أوغلو) وهو من أذربيجـان ، وشيوعي متحمس حتى ابّان الأمبراطورية القيصريـة ، وكان معـروفاً بنشـاطاتـه الثورية في الأوساط الإيرانية .

وفي ٧ حـزيران اعلنت جمهـوريـة (غيـلان الإشتـراكيـة السـوفيتيـة) ، وحملت الى أكبـر الوظـائف حكاماً روساً ابعـدوا وبسرعـة انصار (كـوجيك) المتحمسين للوحدة الإسلامية .

وفي ٢٠ حـزيـران ١٩٢٠ عقـد الحـزب الشيـوعي الإيـراني مؤتمـراً في (رشت) عاصمة (غيـلان) ، وفي نفس الوقت كـانت المساعـدات بالـرجال والسلاح تؤمن بواسطة الجيش الأحمر لدعم الحزب الثوري الأزربيجاني .

كان للتخويف والتهديد آثارها ، وبينما كـانت الجيوش الشيـوعية تـزحف نحو طهران (٢٨ شباط ـ فبراير ١٩٢١) كان قـائد الفـرقة القفقـاسية الإيـرانية (رضـا خان) قـد استولى على الحكم ، وعنـدها تمّ تـوقيع اتفـاقية يتـرك فيها البند الرابع لروسيا السوفييتية إمكانيـة التدخـل في شمالي إيـران في حالـة قيام دول أخـرى بالتـدخل المسلح على أراضي إيـران ، واتباع سيـاسة تـوسعية او تحـاول تحويـل أراضي إيران كقـاعدة للتـدخل العسكـري ضد روسيـا ، وفي حـالة أخـرى إذا ما هـددت حدود الإتحـاد السوفييتي ، أو الـدول الحليفـة لـه خصوصاً إذا لـم تتمكن الحكومة الإيـرانية بعـد انذار من روسيـا من ابعاد هـذا التهديد ، أو درئـه ، وبالتـالي يحق للإتحـاد السوفييتي أن يـدخل جيـوشه إلى الأراضي الإيرانية ، وذلك من أجل اتخاذ التدابير العسكرية الضروريـة للدفاع عن أراضيه .

وفي ١ تشـرين أول ١٩٢٧ توثقت هـذه المعاهـدة بشروط تضمن سيـادة

وحياد وتعاون إيران مع الإتحاد السوفييتي اقتصادياً ، وخلال هذه الفترة تخلى الإتحاد السوفييتي عن رفاق الدرب في غيلان ، وآذربيجان ، وعن بعض الماركسيين الإيرانيين لرضائه عن البند الرابع من المعاهدة ، وعمل الإتحاد السوفييتي على مراقبة تطبيق هذه المعاهدة بدقة ، وجعل أسرة بهلوي تعمل على ان لا تتجاوز أفكارها المعادية للشيوعية حدود إيران الشمالية .

في (آب ١٩٤١) أدخلت انكلترا والإتحاد السوفييتي في وقت واحد جيوشهما الى إيران بحجة تعاطف العاهل الإيراني مع النازيين ، وقد قام الإتحاد السوفييتي بهذا العمل بهدف تأمين الدفاع عن نفسه ، وعملاً بأحكام البند الرابع من المعاهدة السوفييتية ـ الإيرانية ١٩٢١ ، فاحتلت الوحدات السوفييتية الجزء الشمالي من البلاد ، والوحدات البريطانية الجزء الجنوبي الغربي ، وقد أبعد رضا شاه ، وأجبر على التنازل عن العرش وخلفه ابنه محمد رضا .

ومنذ ايلول ١٩٤١ بدأت تظهر علائم النفوذ السوفييتي بانشاء وتأسيس حزب شيوعي إيراني جديد (تودة) والذي يديره ويقوده مسؤولون ذوو ولاء وتبعية سوفييتية ، واستمر العمل على اتباع هذا الحزب وتوجيهه نحو الإتحاد السوفييتي وقيادته .

والأدلة على ذلك كثيرة ، وهي تثبت خضوع وتبعية هذا الحزب لموسكو .

وبأسرع وقت بدأ حزب (تودة) ينظم نفسه بدعم هائل من الإتحاد السوفييتي بهدف توسيع النفوذ السوفييتي في إيران ، ثم عمل على تأسيس نقابات مركزية عمالية ، وأرسل أقوى مؤيديه الى مصافي (عبدان) في صيف ١٩٤٣، وبهذا أصبح قادراً على تنفيذ رغبات الزعيم ستالين . ولكن ما هي هذه الرغبات ، وما هي حقيقتها ؟

بالطبع فان ستالين لا يستطيع الآن ان يهتم بالقضية الإيرانية ، لقد

برزت فرصة ذهبية للحصول على مركز اضافي وهي مفيدة وسهلة المنال ، الا أن ستالين في نفس الوقت كان يحلم بالحصول على إمتيازات بترولية في إيران ، وهذا نفس ما يحلم به البريطانيون ، والأمريكيون . وبهذا ظهرت بوادر طموح مزدوجة ذات نتائج وذيول متضاربة .

هذه الفرصة التي برزت ، والنظام الجديد الذي عمل على ترسيخه يترجم كل هذا اعتباراً من ١٩٤٥ بالسيطرة على المقاطعات الشمالية ، فالمنطقة المحتلة عزلت ، وبكل قساوة عن بقية الدولة ، وقد طردت القوات الإيرانية ، وقوات الدرك ، وجاء مستشارون سوفييت ، وجلهم من آسيا الوسطى » أو من القفقاس ليحلوا محل الموظفين الإيرانيين في المناصب والوظائف الحساسة .

وبينما كانت إذاعة تبريز تذيع الدعاية الشيوعية كانت القبضة البوليسية على المنطقة تجعل الناس يترحمون على قبضة الشاه البوليسية ، كما انشئت كادرات كردية ، وآذربيجانية في (اروان ، وباقو) أما حزب (تودة) فقد كان الحزام الذي يؤمن الإتصال ويحدده فقد شجع ظهور احزاب محلية جديدة كالحزب الديمقراطي الأذربيجاني .

ثم برز الطموح البترولي بشكل ظاهر عندما وصلت بعثة سوفييتية الى طهران في ٢٤ أيلول ١٩٤٤ برئاسة (كفتار زاده) ، وهي من جيورجيا التي طلبت ، دون لفّ او دوران امتيازات للبحث واستثمار البترول في المحافظات الشمالية الخمس .

ولما قاومت الحكومة الإيرانية هذا العرض نظّم حزب توده مظاهرات في جميع انحاء إيران للمطالبة ولفرض قبول فوري للمطالب السوفييتية . . أما في طهران فقد كانت القوات السوفييتية تحمي المظاهرات التي جرت فيها .

وعندما لم تظهر نتائج هذا التهديد ، والتخويف ، عمدت موسكو إلى

ممارسة نوع جديد من الضغط بالعمل على تقوية الظاهرة الإستقلالية في الشمال .

وفي الوقت الذي تعهد فيه ستالين بسحب قواته بعد ستة أشهر من توقف القتال ، فقد اعلن في أواخر عام ١٩٤٥ أن الجيش السوفييتي سيبقى في إيران لمدة أطول من المدة المتفق عليها ، وفي نفس الوقت كان حزب (تودة) يطالب بالحكم الذاتي لأذربيجان، وقد انتهز الإتحاد السوفييتي هذه المناسبة ليعمل في المناطق التي يحتلها على إنشاء جمهورية مستقلة (آذربيجان) و (جمهورية كردية مستقلة) ، وهما اللتان سارعتا الى توقيع معاهدات للتعاون المتبادل مع الإتحاد السوفييتي .

وظهرت في هاتين الجمهوريتين قوات مسلحة محلية مزودة بالدبابات ، والمدفعية ، وانتشرت في أوائل عام ١٩٤٦ بمواجهة المحافظات الجنوبية وبقيادة الجنرال (داتشيان) - سوفييتي من أذربيجان اعارته السلطات الروسية لهاتين الجمهوريتين - وقد قامت هذه القوات بمناورات مشتركة مع القوات السوفييتية للعمل على التهديد بمنع عودة القوات الإيرانية الى الشمال ، ولم تتحرك القوات السوفييتية في ٢ آذار ١٩٤٦ وهو موعد انسحابها من إيران ، وفي هذا الوقت ، وفي هذه الأزمة العصيبة برز السياسي الإيراني المحنّك المعروف السيد قوام السلطنة .

عمل « احمد قوام السلطنة » على مداهنة الإتحاد السوفييتي فعين في وزارته ثلاثة وزراء من حزب (تودة) - (الصحة، التعليم، الصناعة والتجارة)، ثم سافر الى موسكو للمفاوضة ، وفي نفس الوقت أثار حملة من الضغط الدبلوماسي في الأمم المتحدة ضد الإتحاد السوفييتي ،وقد منح الإتحاد السوفييتي امتيازات بترولية هامة ، ولهذا تنازل عن رغبته في إيجاد مركز قوة له في الشمال . . وفي ٩ أيار - مايس - انسحبت القوات السوفييتية كلها عن إيران .

وعمد الشاه وقوام السلطنة على تنظيم استعادة السلطة التي لم يتمكن حزب (تودة) من المحافظة عليها . وقد نجحت هذه العملية اكثر مما كان

متوقعاً لها. وفي أواخر عام ١٩٤٦ تمكنت القوات الإيرانية من إجبار الجمهوريات المستقلة على الإستسلام ، والخضوع للسلطة انمركزية ، ولم يتمكن ستالين من التدخل بعد ان لوح الرئيس الأمريكي (ترومان) بالتدخل أيضاً إذا ما تحرك ستالين وقواته . . وبالإضافة إلى ذلك لم يتمكن ستالين من الحصول على الإمتيازات البترولية من قوام السلطنة لأن المجلس النيابي رفض التصديق على هذه الإتفاقيات ، ثم عمدت السلطات الإيرانية إلى حظر نشاط حزب (تودة) ، وقامت بحملة من الإرهاب ، والعنف الداخلي كان من شأنها إفشال المخطط السوفييتي بالسيطرة . وبالتالي لم يتمكن الإتحاد السوفييتي من تحقيق رغبته بالسيطرة على إيران ، بالرغم من أن إيران كانت تمثل الطموح الإستعماري الأمثل لهذه الدولة .

وفي سنوات ما بعد الحرب دبّ الضعف في حزب (تودة) نتيجة خلافات ، وانشقاقات متتالية ، ونتيجة أيضاً لتخلي السوفييت عنه ، فاقتصر نشاط الحزب على اعمال ارهابية مثل : (محاولة اغتيال الشاه عام ١٩٤٩) ، إلاّ أن وصول الدكتور مصدق الى السلطة (١٩٥١ ـ ١٩٥٣) اتاح لحزب (تودة) فرصة العمل من جديد .

ولم يتخل الحزب عن استراتيجيته ، واستمر في مطالبته منح الإتحاد السوفييتي امتيازات بترولية في الشمال ، وبخطوة غير متوقعة ، وأمام دهشة الجماهير عارض عملية تأميم البترول التي قام بها مصدق ضد المصالح البريطانية .

ولكن عندما اعيد مصدق عام ١٩٥٢ (تموز) الى الحكم بواسطة موجة جماهيرية ، وتأييد شعبي ساحق راح الحزب يتودد الى مصدق ، ولكن هذا التودد سرعان ما حل محله الخلاف حين رفض مصدق ان يصادق من سبق ان غدر به . فسرعان ما انضم حزب (تودة) الى الضفة الثانية التي أعلنت الحرب على مصدق وأسقطته .

بعد سقوط مصدق ، وعودة الشاه لممارسة سلطاته الكاملة أتاحت

الفرصة للسافاك (المخابارات الخارجية الإيرانية) لكي يعمل ، وعلى نطاق واسع في أكثر من اتجاه . ومنها الإنصراف لتصفية حزب (تودة) .

وقد دهش الجميع حين علموا ان (٥٦٤) ضابطاً في الجيش الإيراني أحيلوا على المحاكمة لانتمائهم للتنظيم العسكري الشيوعي الذي أصبح محظوراً . ولكن كل هذا لم يمنع موسكو من إقامة حوار مع الشاه ، والتوقيع في ٢ /١٢/١٩٥٤ على اتفاق لتطبيع العلاقات ، وتنظيم المشاكل الحدودية ، والمالية . وكما كانت الحال عام ١٩٢١ كان كل شيء يجري بالنسبة لإيران كما لو كانت موسكو تفضل النعاون مع عاهل صادق وعاقل على التعاون مع حركة (ثورية) حكم عليها انها ليست في وقتها ، وذات أخطار عميقة .

صحيح ان الشاه محمد رضا كان الدافع لعمليات ارهابية بيضاء ، وادخل بلاده في حلف بغداد ، الاّ أنه لم يكن هناك ما يمنع من التعاون المطرد مع الإتحاد السوفييتي ، اقتصادياً وعسكرياً ، وظهر الإتحاد السوفييتي راضياً عن الضمانات التي قدمها الشاه بعدم نقض اتفاقية ١٩٢١ ،أو تعديلها ، وبعدم السماح لأي تدخل ظاهر أو غير مباشر ضدّ المصالح السوفييتية في بلده .

على هذا الأساس أكد الشاه في عملية تبادل مذكرات بينه وبين موسكو في ١٥ /٩/١٩٦٢ أن إيران لن تسمح بإقامة قواعد للصواريخ ، أو بأن تكون إيران قاعدة انطلاق لعدوان ضد الإتحاد السوفييتي .

واعتماداً منه على هذه الضمانات أغفى الكرملين عينيه عن رؤية محطات الأذاعة والتصنت التي أقامتها المخابرات الأمريكية في إيران ، حتى أنه أوقف عام ١٩٧٦ الإذاعات التي كان يقوم بها حزب (تودة) من بلغاريا ضد الشاه ، ولم يحدث أن انتقد الإتحاد السوفييتي بشكل مباشر الشاه حتى يوم أن غادر إيران في ١٥ /١/١٩٧٩ .

رافق خروج الشاه من إيران تطورات متسارعة باتجاه حزب (تودة) ، اذ اعفت اللجنة المركزية امينها العام (عراج اسكندراي) من منصبه ، وهو الذي سبق له ان هاجم آية الله الخميني ، وعيّن مكانه (نور الدين كيانوري) حفيد آية الله الشيخ فضل الله نوري الذي أعدم شنقاً في أوائل القرن لمواقفه المضادة للحركات الثورية ، وفور تولي كيانوري منصبه الجديد اعلن ولاءه المطلق ، وولاء الحزب لحركة الخميني .

وبشكل مواز وضع الإتحاد السوفييتي نفسه في موضع الحامي والمدافع عن الثورة الإيرانية الجديدة مديراً ظهره لأقواله بتأييد النظام الأمبراطوري ، وقد أعادت موسكو الى الأذهان التحذير الذي أطلقه (ليونيد بريجنيف) في تشرين الثاني ١٩٧٨ بأن كل تدخل في شؤون إيران يعتبر ماسا بأمن الإتحاد السوفييتي ، وبهذا اعتقد الكرملين بان اعلانه هذا منع تدخلاً عسكرياً امريكياً في إيران ، وساهم في تثبيت دعائم النظام الجديد .

من خلال هذا العرض التاريخي السريع يمكننا تلخيص الإهتمامات التقليدية للإتحاد السوفييتي في إيران :

١ ـ قبل كل شيء يتضح ان الإتحاد السوفييتي ضحى بالتوسع العقائدي مقابل التعاون مع سلطنة (يمينية) وذلك للمحافظة على انجازات اتفاقية عام ١٩٢١ ، اذ ان هذه الإتفاقية أوجدت منطقة أمن في الأراضي المحيطة بالإتحاد السوفيتي . وفي نفس الوقت ، واعتماداً على محور ثوري ظهر في مؤتمر باكو ١٩٢٠ ، ونتيجة لمشكلة أذربيجان ١٩٤٦ اتضح ان المطلوب من خلال هدف عقائدي وهجومي تثبيت النفوذ الاقتصادي والسياسي للإتحاد السوفييتي في إيران .

وهذا التمركز الذي يسمح بابعاد أي تدخل عسكري ، يمرّ في الإستعانة والإستفادة الإنتهازية والهادئة للشيوعيين المحليين ، مع العمل على تحريك (رفاق الدرب) والحركات الإنفصالية ، حتى أنه في عامي ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ لم تبادر روسيا إلى استعمال أساليب الضغط

المعروفة ، كحشد الجيوش على الحدود ، أو ايقاظ الثورات والتمرد الإقليمي ، ولم يتحرك حزب (تودة) في طلبه استعمال هذه الأساليب .

وقد رافق هذه السياسية السوفييتية اعمال من نوع الشك وعدم الثقة حيال الوسط الإيراني الذي كان ينظر الى موسكو نظرة (عقائدية) .

٢ ـ السياسة المتبعة حيال الجمهورية الإسلامية . .

ان موقف الشك ، وعدم الثقة حيال نظام ديني معاد للشيوعية يشكل مركزاً لعدم الإستقرار على الحدود السوفييتية ، وهذا الشك كان الدافع وراء انشاء قنصلية في (دوشانبي) عاصمة تاجيكستان ـ سكانها يميلون لإيران ويتكلمون اللغة الفارسية ـ وقنصلية في (اشكابال) وإقامة اذاعة تبث اذاعات خاصة نحو آسيا الوسطى ، ذلك ان النظام الإيراني رفض التوجه الى جنيف عام ١٩٨٢ للإشتراك في المفاوضات والمحادثات التي اقترحتها موسكو بين الباكستان وإيران ، وجمهورية افغانستان الديمقراطية الجديدة ، ولم يرد النظام الإيراني على الملاحظات السوفييتية ، اذ كان الإتحاد السوفييتي ، يعتبر ان حرب الخليج تخدم المصالح الإمبريالية . . خصوصاً وان الحكومة السوفييتية صوتت في ١٦ /٧ /٨٢ على القرار الذي صدر عن مجلس الأمن بوضع حدّ لحرب الخليج ، وإيقاف القتال ، وأخيراً فان الحكومة الإيرانية حاولت نقض معاهدة ١٩٢١ مرات متعددة ، ولكن بشكل غير سمي ، وغير مباشر .

الّا ان الإتحاد السوفييتي يؤمن بالمزايا التي يجنيها من الموقف المعادي لأمريكا ، والذي يقفه آية الله الخميني ، وهو يظهر سروره ، وامتنانه لمجموعة من القرارات الإيجابية للخميني ومنها :

ـ ابعاد الوجود الأمريكي ، وخاصة الغاء قواعد التنصت التي أقامتها المخابرات الأمريكية .

ـ انتهاء وزوال دور الدركي في الخليج الذي مارسته إيران لفترة طويلة .

ـ انسحاب إيران من الحلف المركزي (حلف بغداد سابقاً) ، والمساعدة (المعنوية) غير المباشرة التي يقدمها حلفاء الإتحاد السوفييتي لسورية وليبيا ، والتي يمكن ان تزيد وتنقص ، مع اعطاء المكتب السياسي السوفييتي امكانية مساعدة الجمهورية الإسلامية دون أن تعلن كونها في معسكر هذه الجمهورية ، وهي سياسية استعمال قضيبي حديد في النار .

والمساعدة الفنية التي يقدمها جهاز المخابرات السوفييتي للجيش الإيراني ، وخاصة للمخابرات الإيرانية التي سميت (سافاما) بدلاً من (سافاك) ، وهي صيغة جديدة (للسافاك) تتيح للسافاما التدخل في سياسة الدولة . والطريف هنا ان عملاء المخابرات السوفييتية يظهرون بمظهر خاص جداً ، إذ يتحدثون الفارسية بطلاقة ، ويشاركون المسلمين في صلواتهم ، ويهذا يظهر الإتحاد السوفييتي بمظهر (المسلم) المؤيد للمسلمين .

يضاف إلى هذا بأن موسكو رفضت زيادة التدهور في موقف الأقليات التي تمارس موسكو عليها سيطرة ونفوذاً (الأكراد ، الأذربيجانيين) وبنسبة أقل (العرب ، التركمان ، البلوش) . . ان رفض السوفييت هذا يترافق كمؤشر منذر بأعمال ثورية ، وتمردية ماركسية ، ولكنها محلية كما حدث في خوزستان وغيلان مثلاً . الاّ ان العنصر الرئيسي ، ومفتاح السياسة السوفييتية هذه مهما كانت متنوعة ومتلونة ، فانها تتيح للسياسة السوفييتية التحرك على أكثر من اتجاه .

والظاهر ان موسكو أرادات ان تستغل حالة التوتر في إيران بتجميع المتذمرين ، والإنتهازيين وبعض العناصر المعادية للأمريكيين في اتجاه واحد يعمل للصالح السوفييتي ، ولكن مفاجأة سقوط الحزب الشيوعي في إيران افشلت هذا المخطط ، وذلك بسبب تنبه السلطة الإيرانية التي تعي ولا شك اخطار التمرد ، والثورة إذا ما غذاها الإتحاد السوفييتي . . من أجل هذا امتنعت عن تقديم المعونة للثوار الأفغان ، واكتفت بتأييدهم رمزياً . فرفضت إقامة محطات إذاعة باللغات المحلية ، وموجهة للثوار الأفغان ، لأن

السلطة الإسلامية لا تريد أن تكون قاعدة خلفية لأية ثورة ، ولكنها قبلت إقامة محطة سوفييتية للتنصت على الحدود الأفغانية ـ الإيرانية .

شيدت هذه المحطة على جبال (كوهيما لكسيا) على مسافة أربعمائة كيلومتر من المحيط الهندي ، وعلى بعد ٧٠٠ كيلومتر من المملكة العربية السعودية ، وهذه أول إشارة لقيام الإتحاد السوفييتي باستخدام أراضي (بلوجستان) ، وهي ذات أهمية ، وقيمة استراتيجية .

ومهما كانت الظروف والأحوال فان الإتحاد السوفييتي مضطر للمحافظة على تأييده الحذر ، والترَوِّي ، وبدون ان يتعرض للشبهات تجاه السلطة الإسلامية . ومهما كانت الإفتراضات المطروحة فان ردّ الفعل الأقل قبولاً واحتمالاً هو التدخل العسكري السوفييتي في إيران .

ان تجربة (المأزق) ، أو (التورط) الأفغاني يجب ان تكون رادعة الى أبعد حدّ ، فالإحتلال لا يمكن أن يتم الاّ لسبب خطير جداً . . كما لو كان مثلاً (التدخل المسلح الغربي في الأراضي الإيرانية) ، أو احداث حالة من عدم الإستقرار في الجمهوريات الإسلامية السوفييتية الموجودة على حدود الإتحاد السوفييتي ، واحداث هذه الحالة يجب ان تكون من إيران أولاً . . وليس من شك ان الإتحاد السوفييتي سيتذرع بالبند الرابع من معاهدة ١٩٢١ وهي معاهدة ما زالت قائمة ، ومعمولاً بها في نظر الإتحاد السوفييتي ، وذلك لكي تتمكن جيوشه من اجتياز الحدود الإيرانية في الشمال ، والشرق . . وهذا يتبع تدرج الأحداث المنصوص عنه في البند الرابع من المعاهدة ، أي ان الإتحاد السوفييتي لن يلجأ الى هذا البند الاّ في آخر المطاف إلاّ أن الإتحاد السوفييتي يملك الكثير من وسائل الضغط تغنيه عن استعمال القوات المسلحة حتى ولو وصل الشيوعيون الى الحكم . . وبالمقابل فان التدخل ، غير المنظور والهادىء لقوات خاصة ممكن وقابل للتحقيق .

والإتحاد السوفييتي في المرحلة الراهنة ، وخاصة بعد سقوط حزب (تودة) غير مصرّ على السرعة ، و (الفخ) الذي سينصبه لإيران لا يمكن أن يعمل الاّ اذا كان ميزان القوى سيصبح (اقليمياً) لصالحه ، وقد يكون ذلك قريباً ، أوبعيداً لا فرق .

ان الكرملين مقتنع ، ومؤمن ، بأن الطريق الذي يتبعه سيؤدي إلى الإنتصار على الرأسمالية ، وهذا الطريق يتكون من عناصر الإنتظار ، ومن تدهور الأوضاع وتعفنها ومن هجمات غير منتظرة ، وتراجع ، وهجمات مضادة مستعملاً كل التحالفات والوسائل مهما كانت ملتوية . ومهما كان الخيار فان (الإختراق) السوفييتي ينذر بالخطر والخوف في بلد لها قيمة استراتيجية ولها طاقة لا مثيل لها .





القريب من الخميني . . قريب من السلطة . رافسنجاني في الوسط



آية الله عظمى منتظري





الحرس الثوري . . القوة المنظمة .

ايران : الحرب .. السلطة .. الخلافة

قلت لصاحبي الفرنسي (فابيو) العائد حديثاً من إيران :

ـ كيف تركت إيران ؟ قال :

هدوء غريب يلف العاصمة الإيرانية . . لم تعد طهران ، التي عرفناها قبل سنوات تغلي على مرجل الثورة كأنها جندي أدى خدمته للعلم ، وعاد الى منزله ، ملتفتاً الى شؤونه ، وشجونه الخاصة ، فقد سالت مياه كثيرة على اعتاب منزله ، وفي داخله،خلال غيابه . .

وتستغرب هذا الهدوء أمام المسؤولين ، والقيادات الروحية ، والمراقبين وتتساءل :

هل هو هدوء ما قبل العاصفة ، أم هو استراحة المحارب ؟

ويأتيك الجواب الواحد ، ومن الجميع :

كل شيء هادىء هنا ، لأن الغليان الحقيقي هو على الجبهة مع العراق ، غليان الحرب أخذ معه كل شيء . . الحشد ، والقتال ، والموت هناك . . أما هنا فالصراع من نوع آخر إنه يجري يومياً ولكن في داخل القاعات ، والغرف العارية الا من السجاد ، والتي لا تطأها الا الاقدام العارية . .

مهما كانت مظاهر الحياة ، عادية وهادئة في طهران ، فان الحرب التي تجري على مسافة ألف كيلو متر مربع بعيداً عنها ، قد دخلت في جلد كل مواطن ، وفي داخل كل دائرة من دوائر القرار . . وما أكثرها !

أول آثار الحرب ، يبدو جلياً في الحياة المعيشية اليومية للمواطن في طهران ، فإيران رغم الجهود المبذولة لتحسين الزراعة فيها ، والتي تدهورت الى الحضيض بسبب ما كان يسمى بـ (الثورة البيضاء) في عهد الشاه الذي أسقطته الثورة ، فان الجمهورية الفتية ما زالت تستورد حاجاتها الغذائية بكميات كبيرة من الخارج ، وطبعاً بسعر الدولار الرسمي ، وتحاول الدولة ان تخفف عن مواطنيها اعباء هذا التضخم ، من خلال الجمعيات التعاونية ، لكن الطموحات شيء ، والطوابير الطويلة شيء آخر .

طهران يا صديقي هادئة ، لكنها غيرت مظاهرها وعاداتها ، كأنها لم تعد طهران التي عرفناها معاً في الخمسينات والستينات ، أصبح (الشادور) يلف المدينة كلها ، فالتبرج ممنوع على الإنسان والمكان ، والثوب الإسلامي للمرأة اجباري ، والمرأة ترتدي الثوب الإسلامي (غطاء يلّف الرأس كله ولا تظهر خصلة شعر منه) وهو ثوب طويل يغطي الجسد ، لا تدخل دائرة رسمية . . ولا حتى أي محل عام الّا وترى الحشمة في الثياب والكلام والتصرف . . ممنوع على المرأة ان تتجول في شوارع العاصمة بغير الشادور ، فهو الشعار الذي ترتديه المرأة ، والإمتناع عن التبرج طال المكان ايضاً . .

فالمحلات الفاخرة ، التي كانت تزخر بها طهران هي : اما مغلقة ، وامّا شبه فارغة . . بل ان شوارع العاصمة نفسها يتبدل اسمها في المناسبات . . فشارع مصدق الذي كنا نتسكع فيه اصبح اسمه مؤخراً (ولي العصر) . أما المطاعم فقد اقفل البعض منها ، أو تحول الى مطعم لا يقدم سوى الأطباق التي لا ترافقها الكحول . . وهذا كله ، يوحي ، وكأنّ طبقة ، أو شريحة اجتماعية كبيرة قد تراجعت . . أو تقوقعت . . وتبحث عن شريحة

أخرى حلت مكانها ، فلا تجد ، فالتغيير يتم في طهران ، ليس على أساس تغييب شريحة اجتماعية لمصلحة شريحة أخرى ، وإنما على أساس ما يفرضه هذا التغيير من قواعد مجتمع قائم على أيديولوجية إسلامية جذرية .

شوارع طهران ، هي بدورها هادئة . . (التظاهرات المليونية) التي كانت تخترقها غابت ، والهتافات الهادرة مثل : (الله أكبر ، خميني وهبر) - أي قائد - . . ولا شرقية ولا غربية ، جمهورية اسلامية . . و . . و . . أصبحت شعارات مكتوبة بخط عريض وجميل بالفارسية ، وأحياناً بالعربية على كل حائط بطهران ، من وقت لآخر تخرج مظاهرات من نوع جديد . طهران ما زالت قادرة على استنباط مظاهر جديدة من اشكال التعبير ، هذه المظاهر ، هي مظاهرات راكبي الدراجات . . فجأة يمتلىء الشارع ، بمئات الدراجات النارية يهتف راكبوها الهتافات المعروفة ، لا يتوقفون الّا لتنبيه مخالف أو مخالفة أصول قواعد الثورة في اللباس ، أو الفعل والممارسة .

ويسأل المراسلون المحليون والأجانب هل فقدت الثورة قدرتها على تجييش الناس في (التظاهرات المليونية) . . البعض يقول لك نعم ، وهؤلاء قلّة ، والبعض الآخر يقول لك :

لماذا التظاهرات المليونية ؟ الثورة لم تعد بحاجة إليها لتعبر عما تريده ، كلمة من الإمام الخميني وينقضي الأمر . . والتظاهرات الحقيقية على الجبهة ، في القرى والمدن التي تفتح منازلها لعشرات الألوف من المقاتلين ، وأما تظاهرات الدراجات النارية فاضحت تلازم الشارع .

في طهران ، المظاهر العسكرية غائبة ، كأن الحرب تجري في بلاد أخرى ، لا حشود ، ولا تحركات ، ولا لوريات ودبابات . . حتى الثكنات العسكرية التي تحيط بالعاصمة بدأت بالتلاشي . . فالثورة . . والعسكر . . ضدان لا يجتمعان ، وبدلاً من الجنود في الجيش ، الذين كانوا أصحاب سطوة وأمر ونهي . . تجد رجال (الحرس

الثوري) ـ الباسداران ـ ، فهم أصبحوا كما كان متوقعاً ، (جيش الثورة) ، وهؤلاء في كل مكان ، فهم يتولون أمن الثورة اليومي في الداخل ، وعلى الجبهة . . لكن الحرب ، في طهران ، هي في النفوس تغلي في داخل كل مسؤول ومواطن ، فهي موضع شدّ وجذب . . أصبحت الحرب تشكل مأزقاً يومياً واضحاً .

مأزق الحرب ، لا يخفى على أحد ، وكلما كثر الحديث ، عن الهجوم المتوقع ، والاستعدادات الجارية له ، كلما ظهر كم أصبح مأزق الحرب كبيراً . فالهجوم العسكري على الجبهة ترجمته في طهران : الخروج من الحرب . . فالحرب أكلت الأخضر ، واليابس ، واستهلكت ارواح عشرات الألوف من الشبان ، الذين سقطوا ـ ومهما كان الخلاف حول مضمون الحرب ـ بإرادتهم ، وبوعي تام بما هم مقدمون عليه ، تحت شعار (الشهادة) ـ والعثور على مخرج للحرب عسكرياً كان أو سياسياً ، ليس سهلاً إذ ليس أمراً هيناً أن تجد سلطة ما ، نفسها أمام وضع حشدت فيه أكثر من نصف مليون مقاتل منذ أشهر طويلة ، تحت شمس حادة وفي جوّ قائظ تتجاوز حرارته في أمكنة كثيرة من الجبهة الخمسين درجة ، وهي ، غير قادرة على الحسم ، وهذا كله لأن الحرب تحولت بعد الطلقات الأولى منها الى قضية مركزية سيتقرر من خلال نتيجتها مستقبل الثورة والأطراف المشاركة فيها كما قال لي دبلوماسي فرنسي مضى على وجوده في طهران سنوات عديدة ، وتحول الحرب الى (لعبة سياسية داخلية) يزيد من تشابك ، وتداخل مداخل ومخارج المأزق . والصراع حول الحرب أصبح في المدة الأخيرة ايديولوجياً بقدر ما هو عسكري وسياسي .

ايديولوجي ، بمعنى ان الذين يريدون ايقاف الحرب ، يطرحون القضية من منظار الدفاع الشرعي الواجب ، أما وقد خرج العراقيون من الأراضي الإيرانية ، فلا حاجة لمتابعتها . . والذين يريدون متابعتها ، يقولون ان هذه الحرب ليست هجومية ، ولا دفاعية ، وإنما هي من أجل

(الإسلام) . . وسيان هنا الهجوم أم الدفاع ، وقد حسم الخميني في خطبة له ، الأمر ايديولوجياً لصالح الطرف الثاني . . ثم نشب جدال شرعي آخر ، وهو قديم أصلاً ، لكنه عاد وظهر على السطح ، مع كل مرة يسقط فيها المئات من الشباب الذين يقدمون على الموت (السير على حقول الألغام لتفجيرها مثلاً) مختارين ، فالشهادة أمر واجب ، ولكن كيفية الشهادة كانت محور النقاش . .

آية الله منتظري الذي أصبح الخليفة الرسمي لآية الله الخميني قال :

(ان الإمام الحسين لم يذهب الى كربلاء ليستشهد ، إنما ذهب ليقاتل ، وعندما وافته الشهادة رحبّ بها ، وقبلها راضياً مرضياً) . وهذه النتيجة التي تخالف الرؤية الأخرى والتي تقول ان الإمام الحسين ذهب الى كربلاء ليستشهد واستشهد . وترجمة هذا النقاش الشرعي ، على ساحة الحرب ان آية الله منتظري يرفض الشهادة الإرادية ، أي السير على الألغام مثلاً ، ويطالب بالقتال أولاً ، والإستشهاد ثانياً ، في حين ان الطرف الثاني هو مع التكتيك الآخر . . هل حسم الأمر ولمصلحة من ؟ .

يبدو أن الخميني في كلامه الأخير ، قد أخذ بالرأي الأول عسكرياً ، وليس شرعياً . . بمعنى أنه لم يأخذ بالتفسير الشرعي لإستشهاد الإمام الحسين ، لكنه أخذ بالقول :

ان على القيادة العسكرية تغيير تكتيكها العسكري السابق في أية معركة قادمة .

على الصعيد العسكري ، لم يعد خافياً ، ان القيادة العسكرية للجيش الإيراني لا تظهر اعتراضها على أي هجوم عسكري ضمن المعطيات الحالية ، وقد اجتمع مؤخراً حجة الإسلام (هاشمي رافسنجاني) الرجل القوي في إيران ، وممثل الخميني في لجنة الدفاع العسكرية مع وفد من القيادة العسكرية ، وقد تكلم هؤلاء بصراحة مطلقة، أمام رافسنجاني ، واضعين أمامه ، وعلى الطبيعة وبالأرقام حقيقة الوضع العسكري ،

واحتمالات النصر ، والهزيمة ، وحجم الخسائر المحتملة والتي قدروها بعدد كبير ، وطالبوا في نهاية الإجتماع ، بأن تتولى القيادة السياسية وخطيّاً مسؤولية اصدار أي أمر بالهجوم العسكري ، وهم بدورهم سيبذلون كل جهدهم عندئذ ، ونتيجة لهذا الإجتماع ، وغيره من الوقائع جرى تأجيل الهجوم الكبير المنتظر شهراً بعد شهر .

سياسياً فان القيادة الإيرانية استوعبت مؤخراً اتجاه الإرادة الدولية ، لهذا تتحرك وفي ذهنها تفاصيلها ، وهذه القيادة أصبحت واعية ، انه ممنوع على إيران ان تنتصر في أيّ حرب مع العراق ، كما هو محظور ان تنهزم ، وهذا عائد الى ان نصرها يضع منطقة الخليج أمام احتمالات منظورة ، وغير منظورة ، وبعضها الآخر يتجاوزها ، ليتناول مواطن أخرى من العالم ، وهزيمتها ممنوعة ، لأن ترجمة الهزيمة ليس سقوط الثورة الإسلامية ، وإنما تفتت إيران ، وتقسيمها مما يسمح للإتحاد السوفييتي بأن يمدّ يده ، ويصبح له حصة جغرافية ، وانطلاقاً من هذا كله ، أصبح الحديث شائعاً في كلمات المسؤولين ،وخطبهم عن(المؤامرة الدولية) الخ . .التي تمنع انتصار إيران .

كيف يمكن الخروج من هذا المأزق ؟ سؤال طرحته على صديقي فأجاب :

لا يوجد (سيناريو) جاهز لذلك ، لأنه لا كلمة حاسمة في الموضوع ، فكل طرف يخاف على موقعه ، ولا يريد تحمل مسؤولية القرار ، ونتائجه مهما كان شكله ، وصاحب القرار (الخميني) في مقره ينظر الى تجاذب القوى ، وتصارعها ، ولا يريد أن يكون قراره من جانب واحد ، وهو من موقعه (كمرشد للثورة) لن يتدخل الا للإرشاد ، وهذا لا يتم الاّ عندما يجد ان الكفة قد مالت لصالح هذا الطرف أو ذاك . . وتحديداً متى يجد أن ساعة القرار قد دقّت . .

ولكن هذا لا يمنع من وجود صيغة (سيناريو) تظهر الوقائع اليومية ، وعلى ضوء هذا (السيناريو) يتم العمل على الصعيدين السياسي

والخارجي . . وأيضاً على الصعيد الداخلي ، الوقائع اليومية هي التي تحدد خط السير .

خارجياً ، وبعد اعداد طويل ، تحركت الدبلوماسية الإيرانية ، التي كانت متوقعة في الداخل تحت شعار ان الغرب والشرق هما (شيطانان) لا يريدان الخير للثورة . . ولم توضع حتى الآن خطة التحرك الدبلوماسي وان كانت القيادة السياسية بدأت تتحسس مواقع اقدامها .

داخلياً، فان اشارة واضحة برزت مؤخراً فتحت الطريق امام مؤشرات إضافية ، فلأول مرة جرى الحديث عن خسائر الحرب المادية، وقد شكل الاعتراف صدمة كبيرة في جميع الأوساط الإيرانية . .فقد بلغت الخسائر المادية ، حوالي (١٦٢) مليار دولار خلال سنوات الحرب ، وهذا المبلغ الخيالي ، يصبح مبلغاً اسطورياً إذا ما وضع في دائرة الإقتصاد ، أي ان هذا المبلغ هو خسائر مباشرة ، يضاف إليه عند حسابه اقتصادياً الفوائد التي خسرها الإقتصاد الإيراني في حال استثماره ، وتضاعف المبلغ نفسه مرات عديدة في كل موقع تضرر. .فالقرية المدمرة . . والبستان المقتلع يحتاج الى اضعاف هذا المبلغ الذي صرف فيه قبل سنوات، عندما يؤخذ بعين الإعتبار التضخم المالي الحاصل دولياً وايرانياً وأيضاً الى سنوات طويلة أخرى من الجهد الإنساني ، يضاف إلى ذلك كله خسائر بشرية تقدرها الأوساط الدبلوماسية الأجنبية في طهران بحوالي (٤٠٠) الف قتيل ، في حين تؤكد أوساط (بنيان شهيد) ـ المؤسسة التي تتولى رعاية أسر الشهداء والجرحى ـ ان الخسائر البشرية لا يتجاوز ٢٠٠ الف قتيل ، وفي جميع الأحوال ، وحتى لو كان الرقم الثاني هو الصحيح ، فان هذا لا يخفف من حجم المأساة وسوداويتها .

ماذا يمنع القيادة السياسية في طهران من تحديد موقفها من الحرب ؟

الجواب الجاهز في حديث صديقي ينطلق من التحليل التالي :

لم يعد في إيران حزب ، أو منظمة سياسية قوية ، حتى الحزب الجمهوري الإسلامي ، أصبح منذ غياب قيادته في انفجار مقر الحزب الشهير ، والذي كان من أبرز ضحاياه آية الله بهشتي ، أصبح مجرد إطار غير مؤثر ، والتطور الذي حصل هو تحول بعض الأشخاص الى مراكز قوى ، وتحول كل منهم الى (قلعة) قوتها في عدد وحجم الأشخاص والقوى الملتفة حولها ، والداعمة لها . وأقوى القلاع حالياً هو حجة الإسلام (هاشمي رافسنجاني) رئيس مجلس النواب بغير منازع ، ثم تليه بعض الشخصيات الدينية والسياسية . وهذا التفسير يلخص جانباً من جوانب مراكز القرار في إيران ، أما الجوانب الأخرى ، فانه يمكن استكشافها من خلال إعادة تلمس خيوط السلطة .

صحيح لم يبق حزب فاعل ، ولا قوة سياسية منظمة فاعلة :

- الحزب الجمهوري إطار واسع فضفاض . .
- منظمة (الحجتية) انتهت عن سطح السياسة الإيرانية على الأقل . .
- منظمة مجاهدي الشورة الإسلامية التي يتزعمها (بهزاد نبوي) ، والتي كانت فاعلة ، ومؤثرة تضاءل حجمها بسبب خلافات تياراتها الى حد كبير ، وزعيمها أصبح مجرد وزير من الوزراء.

وحركة تحرير إيران التي يتزعمها(مهدي بازركان) رئيس الوزراء الأول للجمهورية الإسلامية فقدت دورها ،حتى ان زعماءها لم يترشحوا للإنتخابات النيابية ، والبارزون فيها ، يعملون في مجال الهندسة الإنشائية . .

من يبقى اذن ؟

« آية الله الخميني » هو رأس الهرم . . هو صاحب القرار الأول والأخير . . وأي حديث عن ضعف مركزه مجرد أوهام . . أو تمنيات خائبة هو (المرشد) وهو (الفقيه) . . كلمة منه تحسم نقاشات أشهر طويلة . . منه يستمد الجميع قوتهم . . فكلما اقتربت (قلعة) منه خطوة ، صعدت سلم القرار السياسي درجات عديدة . . وهو ماهر الى حدّ مذهل في إدارة الصراع . . يعرف متى يقرب واحد منه . . ومتى يبعد آخر عنه ، ويعرف

متى يحسم ، ليعيد التوازن الى القوى المتصارعة ، اذا الحسم لمصلحة (قلعة) ضد (قلعة) أخرى لا يتم الاّ لأسباب سياسية ـ ايديولوجية ، أما اذا كان الصراع على السلطة والقرار ، فان التوازن يجب أن يظل قائماً .

بعد (الخميني) تستطيع ان تعدّ كثيراً حتى تصل الى الرقم (٢)، اذ لا يوجد رقم (٢) في السلطة بشكل نهائي وحاسم ، حتى هاشمي رافسنجاني القريب من الخميني ، والذي يطلق عليه رقم (٢) تجده احياناً وراء هذا الرقم بأرقام عديدة ، لكن هذا لا يمنع من القول بأن رافسنجاني هو حالياً أقوى (القلاع) لانه يشرف من خلال البرلمان على القضايا التشريعية ، ويتحكم بالسلطة التنفيذية ، وهو ماهر في تكتيك السيطرة على مراكز القرار .

مثال ذلك ، أنه تعمد انتخاب (وهو صاحب الاغلبية في المجلس) احمد عزيزي رئيساً للجنة الشؤون الخارجية في المجلس ، مما يضع وزارة الخارجية تحت اشرافه تشريعياً ، ومتى عرف ان عزيزي قد استقال من منصبه كنائب لوزير الخارجية بسبب تصادمه مع الوزير (ولايتي) فإننا نعرف كيف اختار رافسنجاني الرجل المناسب في المكان المناسب لضبط وزارة الخارجية .

وأيضاً عندما يضطر رئيس الجمهورية ومعه رئيس الوزراء الى استجداء ثقة مجلس النواب ، فان رافسنجاني يصبح ايضاً هو صاحب القرار الى درجة أن سكان طهران أصبحوا يطلقون على الوزارة تعبيراً طريفاً هو :

(لقد تحولت وزارة المستضعفين الى وزارة الضعفاء) .

يضاف الى ذلك ان لرافسنجاني موقع القرار في لجنة الدفاع ، وإذا كان رئيس الجمهورية (خامنئي) هو رئيس اللجنة ، فان الأول هو ممثل (الخميني) ، أي ان حق (الفيتو) سيف مسلط على قرارات الرئيس .

إلى جانب البرلمان ، يوجد مجلس الإشراف على الدستور ، وهو مشكل من (١٢) شخصاً ، نصفه من رجال الدين ، ونصفه الآخر من

المدنيين ، وهذه الهيئة هي شبه هيئة دستورية لأن لها الحق في وضع (فيتو) على تشريعات مجلس النواب إذا وجدتها مخالفة للشريعة وبمعنى آخر فان هذا المجلس موجود لعرقلة تحركات رافسنجاني عندما يقتضي الأمر .

وكتلة رجال الدين التي ينتقدها الخميني احياناً تكاد تتوزع مصادر السلطة ، ومواقعها من خلال مؤسسات ، ومناصب عديدة ، فالحوزات العلميــة في (طهران) و (قم) لهـا مكانتهـا ، ومواقعهـا ، وتجمعـات رجال الدين مثل :

تجمع رجال الدين المناضلين (وهو تجمع سابق على الثورة وناضل من أجلها ـ تجمع فاعل . .

وأئمة الجمعة في المدن والقرى ـ من الملاحظ ان إمامة طهران يتبادلها عدة رجال دين . لهم موقعهم وكلمتهم المسموعة .

وممثلو آية الله الخميني في الوزارات ، والمؤسسات (الحرس ايضاً) لهم موقعهم ، ويشكلون فردياً ومجموعات (قلاعاً) سياسية ضمن اطار مراكز القوى . وإلى جانب هؤلاء يقف (الحرس الثوري) ـ قلعة ـ كبيرة وراسخة تستمد منها الشخصيات السياسية قوتها من خلال تحالفها معها (بما في ذلك رافسنجاني) ، فـ (الحرس) رسمياً هو الساعد الأيمن لولاية الفقيه ، وهم اصبحوا ، تقريباً جيشاً منُظماً له قواعده ، وضوابطه العسكرية ، والأيديولوجية المتشددة ، ويمنع على أعضائه الإنتماء الى أي تنظيم ، أو حزب سياسي ناشط ، أو غير ناشط في إيران . (قدم محسن رضائي قائد الحرس استقالته من عضوية ـ مجاهدي انقلاب اسلامي ـ قبل تسلمه القيادة) ، وهم كانوا وما زالوا يتوزعون على تيارين :

تيار رجال الدين وهو الأقوى . .

وتيار المدنيين . .

ولكنه في مجمله يشكل ذراع تيار الثورة في إيران . وقد أصبحوا من القوة لدرجة ان لهم وزارة خاصة هي وزارة الحرس (لا علاقة لها بوزارة

الدفاع) ، ويتولاها (الحاج رفيق دوست) وهو من مؤسسي الحرس ، وكان قد تولى منصب مسؤول التجهيز في بداية تأسيس الحرس .

يبقى الى جانب هؤلاء (البازار) ، أي التجار ، وهؤلاء قلعة مالية ـ سياسية ـ يعرف الجميع قوتها ، وآية الله الخميني يدرك جيداً هذا ، ولذلك يلاحظ مراعاة هذه (القلعة) في القرارات المتخذة ، فهي تمول رجال الدين عبر (الخُمس) و (الزكاة) للمرجعية ، وتحالفهم مع الخميني ، وإضرابهم الشهير اربعة اشهر ، ساهم الى حدّ كبير في اسقاط الشاه ، وما قرار الخميني في التخفيف من حدة إشراف الدولة على التجارة الخارجية سوى ترضية للبازار ، الذي فقد ممثله القوي (عسكر أولادي) الذي كان مرشحاً في وقت من الأوقات لتولي الوزارة .

بعد هذه الخريطة للقوى في إيران يبقى سؤال آخر :

أين مكان آية الله العظمى حسين منتظري .

في أوائل شهر كانون الأول ١٩٨٥ اختار (مجمع الفقهاء) في (طهران) ، والذي يتكون من٨٣ عالماً دينياً (آية الله العظمى حسين علي منتظري) ـ هذا اللقب لا يحمله الاّ واحد فقط في إيران ـ لخلافة آية الله الخميني في منصب (مرشد الثورة الإيرانية) ، وهو أعلى سلطة دينية وسياسية في إيران ، كما ان من يشغله يصبح هو القائد الأعلى للقوات المسلحة الإيرانية .

وآية الله العظمى منتظري مقيم في (قمّ) ، و (قمّ) هي مدينة رجال الدين ، من تلتف حوله يمسك بزمام (المؤسسة الدينية) ـ اذا صحّ التعبير ـ ، وهو غائب عن تفاصيل القرار اليومي ، بقدر ما هو حاضر في تفاصيل القرارات الكبيرة ، وهو إذا كان اليوم ، ليس أي رقم من سلم القرار ، فإنه في الوقت الذي يغيب فيه الخميني يتحول إلى الرقم (واحد) .

وتاريخ منتظري حافل بالآثار الظاهرة ، فهو ملتزم بتيار الثورة

بعيـداً عن تيار الـدولة . . والحـديث عن الثورة في إيـران ومكانـة منتظري من خلالها يقودنا تلقـائياً إلى الحـديث عن ايديـولوجيـة هذه الثـورة ، ان الحديث عن إيران بمفردات القواميس الغربيـة ، او الماركسيـة ، ما زال خـطأ يقود الى نتـائج خاطئة . . والتيـار الذي يـطلق عليه (تقـدمي) ـ بالمصـطلح السياسي الغـربي أو الماركسي ـ ليس (تقـدمياً) على جميـع الأصعدة ، فهـو كـأسنـان المنشـار ، تـراه في بعض المـواقـع يتخـذ أكثـر المـواقف (تقـدميـة) ، وفي بعضها الآخر اكثرها (يمينية) ، والعكس صحيح . وكمثـال على ذلك ، فـان تـظاهرات الـدراجات النـارية في الصيف المـاضي ١٩٨٥ التي سقط خلالهـا عشرات الجرحى بسبب الإشتباكات التي دارت حـول الحجاب والتبـرج ، لم يقم بها مثلاً تيار رجال الـدين المتشدد كمـا يتبادر الى الـذهن ، وإنما قـام بها تيار البازار الليبيـرالي مستخدمـاً الحجاب في حجب مـطالبه الأسـاسية ، وهي الإنفتاح اقتصادياً وسياسيـاً ، فقد شـدد موقفـه داخلياً ، ليحقّ لـه التشديـد في مـطالبـه خـارجيـاً . . ومـا زال الصـراع في الثـورة في إيـران يجـري بين تيـار الدولة ، وتيار الثورة ، أي تيار الإهتمام بمشاكل إيـران الداخليـة بعد ان سقط الشاه وقامت الجمهـورية . . وتيـار تصدير الثورة الى الخـارج . . والمعروف ان آية اللهالعظمى منتظري هو الذي يقود تيار الثورة .

لم يكن اختيار منتظري مفاجأة ، بل كان متـوقعاً منـذ عام ١٩٨٤ عنـدما طالب رافسنجاني باعلان منتظري خليفة للخميني .

ورغم ان الـدستـور الإيـراني الـذي صـدر بعـد الثـورة يخـول لمجمـع الفقهاء سلطة تعيين مجلس من ثلاثة ، أو خمسة افـراد لشغل منصب المـرشد العـام ، إذا تعذر الـوصـول إلى شخص واحـد ، الا ان اختيـار منتـظري كـان حتمياً وفقاً لتوازنات القوى على الساحـة الداخليـة الإيرانيـة . فمن المؤكد ان منتـظري (٦٣ عـامـاً) هـو اقـرب رجـال القيـادة الـدينيـة في إيـران الى قلب الخميني ، لارتباطهما معاً منذ عشرات السنين ، وبالإضافة الى تـأكد الجميـع منذ قيام الثورة انه يحتل هذه المكانة المرموقة لدى الخميني .

وفي نفس الوقت ، يحظى منتظري بتأييد كافة الإتجاهات داخل القيادة الإيرانية ، وخاصة رئيس البرلمان رافسنجاني الذي كان من أشدّ المتحمسين لاختيار خليفة للخميني خشية أن يتفجر صراع على السلطة بعد رحيل الخميني، وإلى جانب كافة المميزات الأخرى في شخصية منتظري ، والتي حققت له هذا الإجماع كخليفة لمرشد الثورة الحالي ، الاّ ان الميزة الأساسية التي جعلت الجميع يساندونه ، هي انه لم يخض معركة من أجل مصلحة ذاتية .

وكان هذا هو ما بث الطمأنينة في نفوس بعض من تراودهم أحلام السلطة ، خاصة ان الرجل لا يشغل أي منصب في النظام الحاكم بطهران ، بل وتنازل عن تعيين الخميني له كإمام لمدينة (قمّ) ، كما تنازل ايضاً عن تعيين الخميني له كإمام لصلاة الجمعة بطهران عام ١٩٧٩ .

وقد بلغ حرص الزعماء الإيرانيين على تجنب أي صراع على السلطة خلال المرحلة الإنتقالية التي ستلي اختفاء الخميني من الساحة الى حدّ الإصرار على عدم تعيين مجلس متعدد الأعضاء لتولي منصب مرشد الثورة بعد الخميني .

وقد حذر (فخر الدين حجازي) من ان اختيار مجلس لخلافة الخميني سيؤدي الى أن تتحول طهران الى بيروت أخرى .

ولد « آية الله العظمى حسين علي منتظري » في عام ١٩٢٢ بمدينة (نجف أباد) بوسط إيران لأسرة من الفلاحين ، وتلقى دروسه الدينية في أصفهان ، ثم في قمّ ، حتى أصبح مدرساً للعلوم الدينية في عام ١٩٥٢ .

واشترك منتظري في حركات المعارضة الإيرانية ضدّ الشاه خلال الخمسينات ، والستينات ، ثم اصبح بمثابة نائب شبه رسمي للخميني .

وبعد ذلك قضى حوالي ١٥ عاماً سواء في المنفى الداخلي ، أو معتقلاً في سجون الشاه حيث لقي عذاباً مريراً على أيدي (السافاك) .

وعندما قامت الثورة كان منتظري حريصاً على تجنب الصراع الذي تفجر بين مختلف أجنحتها على الميراث ، وهو الصراع الذي انتهى بسقوط التيارات اليسارية ، والعلمانية ، وحتى الجناح المستنير من الإتجاه الديني .

وليس هناك شك من أن منتظري كانت له تحفظات على ما كان يجري في إيران ، ولكن طبيعته جعلته يفضل البقاء في (الكواليس) بدلاً من إتخاذ مواقف مناهضة للنظام ، مثلما فعل (آية الله شريعة مداري) الذي كان هو الرجل الثاني في الثورة . ويؤكد الذين عرفوه عن قرب ان مفتاح شخصية منتظري يكمن في انه رجل عملي (براغماتي) يرغب في اضفاء المزيد من المرونة على مواقف الثورة لتصبح أكثر قبولاً في العالم .والواقع ان منتظري رجل محافظ من الناحية الفكرية ، ولكنه في نفس الوقت يتسم بطابع ليبرالي تغلب عليه الديمقراطية الإسلامية .

فهو على سبيل المثال ، من أشدّ المتحمسين لدعم القطاع الخاص في إيران ، وبأن تبتعد الدولة عن ملكية وسائل الإنتاج بقدر الإمكان ، ولذلك فهو يحظى بتأييد تجار (البازار) ، والطبقة الوسطى التي ترى فيه خطوة الى الإمام بعيداً عن التطرف الذي استغله اعداء إيران لتشويه صورتها في العالم ، ويتمسك منتظري بمبدأ تصدير الثورة الإسلامية باعتبار ذلك واجباً على كل مسلم ، وكذلك فهو يرى ضرورة الإستمرار في الحرب . .

وليس هناك شك في أن وصول منتظري للسلطة يعتبر امتداداً لولاية الخميني داخلياً وخارجياً وعسكرياً .

وعلى الصعيد الداخلي يتحمس منتظري لفكرة تقسيم ثروة إيران على الشعب بشكل عادل ، ويرى ان الظلم الإجتماعي هو أسوأ اتهام يمكن أن يوجه لنظام إسلامي ، لأنه ببساطة يحرمه من شرعيته ، ويفقده مبررات الوجود .

ومن أهم مميزات منتظري احترامه لحقوق الإنسان ، ورفضه القاطع

لممارسات القمع ، وتعذيب المعارضين ، وله في ذلك فتوى شهيرة ، ولكنها ، لم تنفذ حتى الآن في إيران ، وهي :

(ان الإسلام يقضي بأنه من الأفضل ان يهرب مذنب من العدالة على أن يظلم بريء ولو بالقول) .

ورغم ان الظروف كلها تقريباً متاحة لكي يقوم منتظري بمهامه دون معوقات ، الا أن هناك عدة صعوبات من المؤكد انها ستواجهه :

اولاً : يتعين عليه ان يشغل مكان زعيم ديني يحتل مكانة مميزة وتحيط به هالة . .

ثانياً : ان بعض التيارات داخل القيادة الدينية الإيرانية تنظر إليه على أنه مجرد مرحلة انتقالية ، وعليه بعد ذلك أن يسلم السلطة إليها .

ثالثاً : ان افكاره التي أعلنها وهو في (الظل) سوف يتعين عليه تنفيذها عندما يمسك بمقاليد الأمور مما سيفجر العديد من المواجهات ، خاصة من جانب العناصر المتطرفة التي من المؤكد انها ستقاوم التغيير . . .

ها هي إيران السلطة ، لكن ما هي مواقع المعارضة من هذه الخريطة . يقول صاحبي العائد حديثاً من طهران :

ان النظر إلى إيران من الداخل غير النظر إليها من الخارج ، فضجيج المعارضة في الخارج كبير جداً ، أما وجودها في الداخل فغير مرئي ، وفي الحالتين يعني انه غير فاعل ، ونشاط المعارضة يكاد يكون محصوراً في الخارج فقط ، فهل يعني ذلك ان نظام الجمهورية الإسلامية في إيران يعيش بلا معارضة ؟ .

الأخذ بهذا التبسيط لا مجال لصحته ، لكن يمكن القول بأن بحث هذا الموضوع يحتاج الى كتاب مستقل.. يتناول فاعلية المعارضة الإيرانية تحت الأرض

فهل من الممكن الآن كتابة مثل هذا الكتاب ؟
قد تحمل الأيام القادمة الإجابة على هذا السؤال الكبير .

الفهرس